٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسئلة الكتاب صـ ٢٠

رحلة الى بغداد
تأليف
نواب حميد يار جونك بهادر

ترجمة
كاظم سعد الدين
بغداد

تمهيد

يخامر كل امرىء يعرف، او يخال انه يعرف، كيف يكتب، طموحٌ اعتيادي في ان يصبح مؤلفاً. ولابد لي في معرض اعترافي باني لست استثناء من هذه القاعدة، ان أبين مدى ادراكي مواطن ضعفي. ولما لم يكن في نيتي نشر هذه اليوميات عندما بدأت تدوينها، وبما انها لاتعدو ان تكون الا مجرد سجل لاحداث طرأت في غضون الرحلة التي قمت بها في صحبة والدي، فاني ليحدوني الامل ان يغض قرائي الطرف عن الشوائب التي تكتنفها. واذا ماحالفني التوفيق في نقل كل ماأصبو الى نقله عن الرحلة التي اثارت في نفسي غاية الامتاع، واذا ماوجد قرائي شيئاً من التسلية بما سجلته، فان ذلك سيزيل شيئاً من تهيبي في المغامرة بما يليق بهذه المدونة الصغيرة.

المؤلف

رحلة الى بغداد

الخميس ٢١ آذار ١٩٠٧، غادرت «حيدر آباد» الى «اجمير» بصحبة والدي العقيد نواب افسر المُلك، بهادر[1]. فبلغناها في الليلة الثالثة من رحيلنا، وقد استقبلنا في المحطة اخي الاصغر محبوب الذي يدرس في «كلية مايو». ومكث والدي مع مستر وودنكتن، رئيس «كلية مايو» الذي دعاه الى ضيافته اثناء زيارته الى «اجمير»، ونزلت مع محبوب في «دار تونك» في كلية مايو.

الاحد ٢٤ آذار ـ ركبنا في الصباح متوجهين الى دولة باغ: كانت الحدائق جميلة، لطيفة الترتيب. وزرنا ايضاً خزان اناساكار البارع الجمال، وقد اقيمت على السد مقاصير من المرمر الخالص، شيدها الامبراطور شاه جهان[2] سنة ١٦٣٧. والمبنى بالغ الاناقة يضفي على الخزان مظهراً جليلاً. اصطحب مستر وودنكتن ابي عصراً الى الكلية حيث رأى الدور المختلفة التي يبلغ عددها جميعاً عشرة للاقسام الداخلية، وهي تعود لولايات مختلفة، فضلاً عن مبنى الكلية. وتضفي تلك المباني مظهراً بديعاً للكلية.

الاثنين ٢٥ آذار ـ غادرنا اجمير مساء ووصلنا بومبي في صباح الاربعاء الباكر، وذهبنا بعد الافطار لرؤية سفينتنا، المسماة دواركا العائدة الى شركة .B.I.S.N. وبالرغم من ان دواركا لم تكن باخرة كبيرة جداً، فقد الفينا كل شيء فيها نظيفاً، وقد ابدى ربانها وضباطها غاية اللطف والأنس.

WWW.ATTAWEEL.COM

وامضيت بقية النهار في استحصال التذاكر والجوازات وغيرها. واودعنا مالنا الذي سنأخذه معنا لدى شركة .B.I.S.N واخذنا منها اعتماداً به الى وكلائهم في بغداد: السادة ستيفن لنج وشركائه(*). وفي اليوم التالي ذهبنا الى رصيف فكتوريا في حوالي الساعة الثامنة صباحاً. وكان البحر هادئاً. وكان الجو في الليل شديد البرودة وعندما نهضنا في الصباح كان البرد كنهاية موسم البرد في حيدر آباد تقريباً. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً ابصرنا ارضاً في الجهة الشمالية. واستطعنا ان نستبين، بمعونة منظار، مدينة صغيرة ومنائر معبد. وعلمنا لدى استفسارنا من الضباط ان المعبد يدعى دواركا وقد سميت السفينة باسمه وانه مكان مشهور لعبادة الهندوس. ووصلنا خليج كو في الساعة الواحدة وتوقفت باخرتنا ساعتين في ماندفي حيث نزل خمسون راكباً تقريباً وصعد اليها قلة آخرون. واستأنفنا السفر في الساعة الثالثة عصراً ووصلنا «كراچي» في صباح اليوم التالي، الساعة السادسة منه. ومكثنا فيها نهار ذلك اليوم كله. ولم يسمح لأحد ان يدخل المدينة نظراً لقيود الحجر الصحي. واخذوا جميع ركاب الدرجة الثالثة وخدم السفينة الى مخيم الحجر الصحي حيث تم فحصهم ثم اعيدوا الى السفينة. وتركنا كراچي في حوالي الساعة الثامنة مساء واخذنا معنا البريد الانكليزي الذي وصل في الوقت المحدد في باخرة اخرى.

الاحد ٣١ آذار ـ كان البحر مثل صفحة مرآة. ووصلنا في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي الى مسقط حيث رست السفينة ساعتين لكي تسلم الرسائل والرزم وغير ذلك. تقع المدينة في اسفل صخور جبارة. وفيها بيوت ذوات طبقتين او ثلاث طبقات تواجه البحر وهي قريبة من حافة المياه. وكان بيت السلطان، الذي دلونا عليه بالاشارة، مبنىً مهيباً يرفرف عليه علم احمر، والى جانبه مقر المندوب السامي الذي يميزه علم المملكة المتحدة الخافق فوقه.

الثلاثاء ٢ نيسان ـ دخلت سفينتنا الخليج (العربي) في حوالي الساعة الثانية. وعندما صعدنا الى ظهر السفينة في الصباح وجدنا السماء ملبدة بالغيوم وكانت ترسل رذاذاً خفيفاً. كان الساحل الشرقي على جهة منا والساحل العربي على الجهة الاخرى وسفينتنا تسير بينهما في الصباح الباكر عندما هب نسيم بارد وصوت الامواج الرقيق يبعث الهدوء في النفس. وكان ابي لايشعر بالراحة، عموماً، في اية رحلة بحرية، غير انه في هذه الرحلة استمتع كثيراً، لان البحر كان هادئاً تماماً. وكان يرافقه الدكتور عناية علي الذي اهتم به اهتماماً كبيراً. وكان ينصحه كل مساء عندما يصبح الهواء بارداً ان ينزل لئلا يعرض نفسه للهواء الرطب.

الاربعاء ٣ نيسان ـ وصلنا بوشهر في حوالي الساعة الثامنة من الصباح. والقت سفينتنا مراسيها بعيداً عن الساحل وماان تم تسليم البريد حتى استأنفنا السفر مرة اخرى. وبعد قليل هبت فجأة ريح قوية واضطراب البحر. واصيب كل من على السفينة تقريباً بدوار البحر. ومكث ابي في مقصورته طوال النهار.

ووصلنا الكويت في الساعة السابعة مساءً، والقت باخرتنا مراسيها هاهنا طوال الليل، ثم غادرنا في الساعة الثامنة بعد ان نزل خمسون مسافراً، كلهم تقريباً من العرب. تقع الكويت على ساحل الجزيرة العربية واغلب سكانها من التجار العرب. وسلطان الكويت يتمتع باستقلال تام، وله تأثير عظيم في شعبه، وهو غني جداً ويمتلك عدداً كبيراً من بساتين النخيل على ضفتي شط العرب. وفي الكويت يقيم قنصل بريطاني ـ هو الميجر نوكس، الاوربي الوحيد فيها.

الخميس ٤ نيسان ـ وصلنا الفاو في الساعة الواحدة ورسونا فيها قرابة ساعتين. وسلم البريد فيها ثم استأنفنا السفر. ودخلنا من هذا المكان شط العرب. وكان الحاج ابراهيم مرشد السفن قد اخذ على عاتقه مسؤولية السفينة. مدخل النهر، الذي يسمى السد في حالة سيئة بسبب الرمال التي يجرفها ولايجري تنظيفها. وبعد ان توغلنا في النهر مسافة قصيرة، اخذ يضيق تدريجاً وكانت الضفتان على بعد يتراوح بين مئتين او ثلاث مئة ياردة عن الباخرة. تغطي الضفتين بساتين النخيل التي اضفت عليهما منظراً خلاباً. وكنا نرى بيوتاً صغيرة من الطين، يسكنها عربي وعائلته ممن يهتمون بالبساتين. وكنا نرى حصاناً عربياً اوحصانين امام هذه البيوت ترعى مع الماشية. وكانت الحنطة تزرع بين صفوف النخيل. فالتربة خصبة جداً والمياه وفيرة. كان على ظهر الباخرة قليل من اهل البصرة وعلمنا منهم ان لاشيء انفع من بستان نخيل؛ وتشتهر تمور البصرة في جميع انحاء العالم بجودتها. وبما انها تنمو بكميات وفيرة فانها تصدر الى اوربا وامريكا والهند. ولم يكن النخيل في هذا الوقت يحمل تمراً. فهو يبدأ في ايار بالحمل وينضج في ايلول، فيكون منظر الاشجار بديعاً. في شهري ايلول وتشرين الاول اشد شهور السنة حرارة(*)، يجنى التمر ويعبأ في صناديق من

الخشب، او اكياس او حصران (خصاف) لنقله بالسفن. وتغل كل شجرة مامعدله ٣٠٠ ليبرة[٥] من التمر سنوياً بربح قدره ٨ ربيات[٦] يحصل عليها مالكها.

وصلنا في الساعة السابعة الى المحمرة وهي بلدة صغيرة على ضفة النهر. ويصب هنا نهر الكارون احد روافد الفرات[٧]، وتسيرّ فيه باخرتان الى الاحواز، والمدن التجارية الاخرى في ايران تمتلكهما شركة بريطانية. ورست باخرتنا في هذا المكان طوال الليل، ثم غادرنا في الصباح عند الساعة السابعة الى البصرة التي تبعد عشرين ميلاً من هنا. ولما مرت باخرتنا بقصر شيخ المحمرة اطلقت اطلاقة مدفع واحدة تحية واعترافاً ببعض الخدمات التي قدمها الشيخ الى شركة .B.I.S.N قبل سنوات: فتطلق كل باخرة عائدة لهذه الشركة تحية لدى مرورها بمنزل الشيخ: وشاهدنا، لدى مرورنا من المحمرة الى البصرة، بعض المباني الكبيرة ذوات طبقتين على ضفتي النهر، تخص الاثرياء الذين يسكنونها اثناء الصيف.

وصلنا البصرة في مدة ساعتين ورسونا امام المحجر الصحي. وانشغل نوتية الباخرة طوال النهار بافراغ حمولتها التي يكوّن الخشب والحنطة نسبة عالية جداً منها.

السبت ٦ نيسان ـ غادرنا الباخرة في حوالي الساعة الرابعة الى مخيم الحجر الصحي في زورق اعاره متلطفاً الكابتن هرست. ورافقنا الضابط الاقدم، مستر ستوكويل الى الشاطيء. ودلنا طبيب المحجر الصحي، الذي رافقنا، على مقرنا الذي يتكون من بيت لطيف ونظيف جداً فيه حجرتان على كل جانب وحجرة طعام في الوسط. يقع البيت على بعد ثلاثين ياردة من النهر، وفيه حديقة صغيرة امامه، يغلب فيها اشجار العنب.

طبيب المحجر من رومانيا اسمه فريد مان. عينته الحكومة التركية. وكان الطبيب والموظفون الآخرون في المحجر لطفاء للغاية. ووضع دكتور فريد مان زورقاً حكومياً تحت تصرفنا واخبر ابي اننا نستطيع الخروج بالزورق متى مانشاء، على ان لاندخل مدينة البصرة.

سمعنا كثيراً عن المشكلات والمصاعب التي يجب تحملها اثناء فترة الحجر الصحي، غير اننا، على نقيض ذلك كله، الفينا كل شيء مريحاً غاية الراحة. وبالرغم من ان الحجرات لم تكن فسيحة، فانها كانت نظيفة، وعلى النوافذ ستائر خضر، كان البيت مؤثثاً خير تأثيث بالاسرة وستائر البعوض، والمناضد والكراسي، ومجهزاً بالسكاكين والشوكات وغير ذلك.

وقبل ان نغادر حيدر آباد اعطى حضرة السيد عبد الرحمن افندي البغدادي أبي رسالة توصية الى ابن اخيه السيد رجب افندي نقيب الاشراف الذي يسكن البصرة، ولدى وصولنا اليها، بعث ابي بالرسالة اليه. جاء في اليوم الثاني ابن نقيب الاشراف في زورقه لرؤية والدي، واخبره ان السيد النقيب خارج الى الصيد في الريف، ولكنه سيعود في المساء، وسوف يمرج لرؤية ابي في اليوم الثاني. وكان يرجو بعد انقضاء فترة الحجر الصحي في صباح الاربعاء ان نحل ضيوفاً عليهم في البصرة حتى يحين موعد رحيلنا الى بغداد. فقبل ابي هذه الدعوة الكريمة. وخرجنا في الساعة الرابعة عصراً الى صيد البط، واصطحبنا رجلٌ من المحجر ليدلنا على البط. ورأينا قليلاً منه ولما لم يكن لنا مكمن على ضفتي النهر، لم نكن قادرين على الوصول ضمن المدى المناسب، ولذلك لم نملأ كيساً كبيراً.

الاثنين ٨ نيسان ـ حضر نقيب الاشراف صباحاً الى المحجر الصحي لرؤية ابي. كان يتكلم الانكليزية بطلاقة، وتحدثنا طويلاً.

الاربعاء ١٠ نيسان ـ حزمنا امتعتنا تأهباً للذهاب الى شاطيء النهر. وحضر الى مقرنا في حوالي الساعة الثامنة يوسف بك وهشام بك افندي ابن نقيب الاشراف السيد رجب افندي وابن اخيه. كان والدي يتناول افطاره في ذلك الوقت، لذلك دعوناهما الى مشاركتنا. وقال هشام بك افندي لابي اثناء الحديث ان نقيب الاشراف اخبر والي البصرة عن وصولنا، ورجاه ان يبعث عربته الى رصيف المرفأ لتنقل والدي. وعندما سمع والي البصرة ان نقيب الاشراف يريد العربة من اجل آمر قوات سمو النظام اوضح ان من تقاليد الامبراطورية العثمانية اذا ماوصل «سره عسكر» اي لواء عسكري الى اي موقع عسكري رافقه حرس الشرف، لذلك فانه لن يرسل عربته الخاصة حسب وانما سيأمر قائد البارجة الحربية «اقليد البحر»، اي مفتاح البحر، الراسية قرب المرفأ ان يجهز حرساً للشرف. وامر والي البصرة ايضاً «امير البحر» ان يذهب في احد زوارق السفينة الى موقع المحجر الصحي ليصحب ابي في عبور النهر.

بعد الافطار، وعندما كان ابي ويوسف بك وهشام بك افندي يتمشون على الشاطيء وصل امير البحر وعبد الوهاب افندي امين السر الخاص لوالي البصرة وعبد الله باشا عضو مجلس الوالي وعوني بك وآلاي قومنداني اي مفتش الشرطة العام، وجاءوا لمقابلتنا. قدم يوسف بك هؤلاء الموظفين الى ابي وتكلم اليهم قليلاً باللغة العربية. واعجب امير البحر ببدلات جنديينا من حرس الخيالة الافريقي وببدلة جندار[٣] غلام مرتضى من حاملي الرماح الماسية.

ثم دخل ابي ومحبوب وانا في زورق امير البحر وتبعنا في زورق آخر الدكتور عناية علي خان وجنديان مع مفتش الشرطة العام وكانت البارجة التركية «اقليد البحر» راسية قرب بناية في طبقتين هي دائرة امير البحر. وجذفوا الزورق حتى صرنا امام البيت تشكل حرس شرف من حوالي عشرين بحاراً تركياً مسلحين ببنادق مارتيني ـ هنري، وكانوا واقفين على السدة وتقابلهم الجوقة الموسيقية العائدة للبارجة نفسها. وعندما نزل والدي، اطلق ضابط حرس الشرف امراً يشبه «سلام درء[٤]».

وامتثالاً لامره جعل حرس الشرف بنادقهم في وضع يشبه ماعندنا من «سلاحك، قدم». وفتش ابي حرس الشرف ثم تقدم مع نقيب الاشراف والموظفين الآخرين الى دائرة امير البحر حيث جلسنا حوالي عشر دقائق وتحدث ابي حديثاً قصيراً مع امير البحر، ثم غادرنا المكان. وصعد ابي ونقيب الاشراف ومحبوب وانا في عربة ارسلها والي البصرة، وتبعنا بقية الجماعة ورافقنا حرس الوالي وعددهم اثنا عشر رجلا.

تشبه سترات حرس والي البصرة سترات مدفعية سمو النظام كثيراً. ويلبسون سراويل فضفاضة منتفخة كالاكياس وطرابيش تركية واحزمة عبر اكتافهم يحملون فيها عتاد مارتيني ـ هنري.

كانوا جميعاً ضخاماً، بشرتهم لطيفة ولحاهم حليقة، تبدو عليهم البسالة، غير أن جلستهم على ظهور الجياد لم تكن بالغة حد الكمال. يمتطون جياداً عربية اصلية، عليها سروج، وركابها من حديد عريض، وسيور اللجام اشرطة قطنية عريضة.

سرنا خلال مدينة البصرة الى بيت نقيب الاشراف، ومررنا في طريقنا باسواق ضيقة وازقة. كانت الطرقات موحلة بسبب المطر الذي هطل ليلة امس. هيأ مضيفنا بيتاً مستقلاً لاستقبالنا، مؤثثاً على الاسلوب الاوربي. وارسل السيد النقيب كلمة يخبرنا ان الافطار[٥] سيقدم في الساعة السادسة، دهشنا لدى سماعنا ذلك لان الساعة كانت الحادية عشرة آنذاك، ولكن الرجال العرب المرافقين لنا اخبرونا بالفرق العظيم بين توقيت البصرة والتوقيت الانكليزي: فحسب التوقيت الاول تكون الساعة الثانية عشرة عند غروب الشمس وعند شروقها ايضاً، وبهذا تعني الساعة السادسة قبل الظهر في الحقيقة الثانية عشرة ظهراً بتوقيتنا.

وذهبنا في الساعة المعينة الى مقر نقيب الاشراف. وجاء مضيفنا لاستقبال ابي وقادنا الى «الديوان خانة» او غرفة الاستقبال، وهي بهو فسيح، حوفا دواوين (ارائك) وبسط نفيسة مفروشة على الأرض. وجلسنا فيها، وبعد ان وصل جميع الضيوف اصطحب نقيب الاشراف ابي الى بهو الطعام حيث مدت منضدة واسعة وعليها السكاكين والشوكات وغير ذلك مرتبة وفق ترتيبها الصحيح. ووضعت انواع مختلفة من المخللات والمربيات في صحون صغيرة على المائدة. وبعد ان اتخذنا مقاعدنا قدم لنا حساء طماطة، ثم جلب خروف كامل مشوي ومحشو بالرز والكشمش واللوز وغير ذلك على طبق كبير. انها طبخة جديدة تماماً بالنسبة الينا، ولذيذة غاية اللذة، تشبه «البلاو» الهندي. وسألنا عنها فقيل لنا انها تدعى «قوزي» وهي كلمة تركية تعني حملاً، ثم تلا ذلك دجاج مشوي وحلويات ومعجنات حلوة ورز مبلل بالكاري. استغرقت وجبة الطعام نحو ساعة، ثم استأذنا مضيفنا بالانصراف وذهبنا الى مقرنا. وقال نقيب الاشراف لوالدي اثناء مغادرتنا ان من دواعي المجاملة زيارة الوالي، مادام قد ارسل له عربته وحرسه. ولما كان وقت رحيلنا قريباً، فقد اقترح ان نذهب اليه عصر اليوم نفسه، فوافق ابي، مسروراً، على ذلك.

ذهبت عند الساعة الواحدة الى لنج وشركائه لترتيب امر سفرنا الى بغداد، في الوقت الذي ذهب ابي ومحبوب بصحبة نقيب الاشراف لزيارة والي البصرة. حكى لي محبوب في مابعد ان الوالي استقبل ابي استقبالاً قلبياً، وتحدثا طويلاً وقال الوالي اثناء حديثه ان رغبة عظيمة تعمر قلبه لرؤية الهند، وانه يأمل في نهاية خدمته في البصرة، التي ستنتهي بعد حوالي خمس سنوات، ان يحقق هذه الرغبة ويزور حيدر آباد ايضاً. وعند مغادرة والدي، اخبره الوالي انه مدعو لدى نقيب الاشراف الى العشاء حيث يأمل لقاءه مرة اخرى. وكنت في ذلك الوقت قد رتبت امر كل شيء بخصوص رحلتنا، ولدى عودتي رأيت السوق الكبير وغيره الذي يقع على

ضفة شط العرب. اغلب البيوت من طبقتين وهي مبنية من اللبن. ولايستعمل الرخام هنا كثيراً لغلائه الفاحش، لذلك كانت البيوت تبنى كلها من الطابوق واللبن. . والمطر خفيف والا لاصيبت هذه البيوت باضرار جسيمة. طرق البصرة ضيقة جداً ومهملة وليس ثمة تنظيم في انارة الشوارع. يتكون السوق الكبير من طريق طويل ضيق يغطيه سقف وعلى جانبيه صفوف من الحوانيت ـ تشبه محطة السكة الحديد من بعيد. السوق مغطى بسقف لتيسير التسوق اثناء اشهر الصيف عندما تكون الحرارة لاتطاق. وكل اصحاب الحوانيت تقريباً من العرب فيما خلا قلة من حوانيت الفاكهة والمخابز التي تعود لليهود. ولايوجد في البصرة، فضلاً عن هذه الحوانيت الصغيرة في السوق، مخازن او حوانيت كبيرة. ويتم كثير من النقل بالزوارق بسبب وقوع المدينة على ضفة النهر. ويمكن استئجار العربات ايضاً غير انها ليست في حالة جيدة نتيجة لسوء حالة الطرق. ولايوجد في البصرة، على ماأعلم، اي نادٍ او بهو للبلدية تعقد فيها اجتماعات لاهل البصرة. للاوربيين، طبعاً، ناديهم. ويوجد عدد من المقاهي (قهوة خانة) التي تؤمها العامة من الناس. وتكثر البساتين حول البصرة ويقولون انه يمكن الحصول على كل انواع الفاكهة من شهر حزيران لمدة اربعة شهور، حيث يسود الجو الحار، الذي لايطاق فيلجأ الاثرياء، عموماً الى منازلهم الصيفية التي تقع على ضفة النهر وتحيط بها البساتين، او انهم يلوذون بحجرات تحت الارض تدعى السراديب، بنيت خصيصاً للاستعمال في اشهر الصيف. كانت اغلب الحوانيت قد اغلقت عند عودتي في الساعة الرابعة، ولما استفسرت عن ذلك عرفت ان الناس اعتادوا ان يغلقوا حوانيتهم مبكرين.

ارسل نقيب الاشراف في المساء كلمة يقول فيها ان العشاء سيقدم في الساعة الثانية عشرة وهذا يعني حوالي الساعة السادسة والنصف زوالية، وانه سوف يبعث خبراً بوصول الوالي. كان ابي جالساً في حجرته لكتابة رسائل، وكان في نيته ان يذهب الى حجرة الاستقبال في مابعد لدى سماعه بوصول الوالي. وكان جامدار محمود من حرس الخيالة الافريقي واقفاً قرب والدي عندما دخل احد خدم السيد النقيب وطلب اليه ان يخبر سيده ان الوالي قد وصل. والتبس الامر على جامدار محمود فاخطأ في فهم كلمة والي وظنها «مالي» اي بستاني، فرأى ان من غير الحكمة ازعاج سيده وهو في عمله بخبر وصول شخص لااهمية له. فوقف دقائق معدودات يفكر محاولاً معرفة الامر ثم عاد خادم النقيب الذي كان ينتظر متلهفاً، وذكّره مرة اخرى برسالته. ولما سمع ابي كلام خادم السيد النقيب، رفع نظرة وسأل ماالامر؟ فتقدم جامدار محمود بكل احترام وقال:

«اخبرني هذا الرجل بوصول المالي ولاادري لماذا جاء؟ لذلك لم اشأ ازعاجك.» فلما سمع ابي ذلك ادرك الخطأ الذي وقع فيه محمود واسرع الى حجرة الاستقبال حيث قابل الوالي والسيد النقيب.

كان العشاء يشبه الوجبة السابقة في الغداء. عاد الجميع بعد العشاء الى حجرة الجلوس حيث قدمت القهوة. وحان بعد قليل موعد الصلاة، فمدت السجاجيد في الحجرة نفسها وادى الصلاة جميع من كان حاضراً، وبعدها قدمت القهوة والسيكاير مرة اخرى. وقبل ان نغادر قال الوالي لابي انه سمع من النقيب ان ابي سيذهب الى الزبير في اليوم التالي وانه ايضاً سيذهب لرؤية الاماكن التي ترى فيها الخيل. وبما ان الزبير تبعد حوالي عشرين ميلاً عن البصرة وان الطريق يمر بجداول وارض صحراوية، فمن المستحسن ان يصحبه حرس وانه سيكتب الى «السر عسكر» طاهر باشا ليرسل الحرس لوالدي. وعندما انفض جميع الضيوف، ودعنا نحن ايضاً السيد النقيب وتمنينا له ليلة سعيدة، وقال لنا اننا سنبدأ غداً صباحاً سفرنا الى الزبير قبل الشروق.

عدنا الى حجراتنا في حوالي الساعة التاسعة مساءً. وتحدثنا طويلاً عن الخيول العربية. اراد ابي الذهاب الى الاماكن التي ترى فيها الخيول العربية بكثرة ومنها نصدر لاالى بومبي وحدها بل اماكن عديدة اخرى، وكان راغباً في المكوث لدى القبائل التي تمتلك اكبر عدد من الافراس، مثل نجد، وفي رؤية الخيول العربية في مواطنها الاصلية من اجل الاطلاع عن كثب على طرائق توالدها وتربيتها. وكان السبب الرئيس الذي دعا والدي الى اصطحابي واصطحاب محبوب هو ان نحصل على معلومات كاملة عن الحصان العربي. واخبرني قبل ان تبدأ سفرتنا ان آخذ محاضرته عن الحصان العربي لكي نتدارسها اثناء رحلتنا ونكون متأهبين للدرس الذي سنتلقاه في مابعد. وسوف اشير الى ذلك الدرس الذي تلقيناه في نهاية هذه الرحلة.

نهضنا انا ومحبوب مبكرين في صباح اليوم التالي. وبعد ان لبسنا ذهبنا الى حجرة والدي ووجدناه متأهباً. وارسل نقيب الاشراف بعد قليل كلمة يقول انه متأهب لبدء السفرة.

سرنا نحو ميل يصحبنا حرس والي البصرة وتوقفت عرباتنا قرب ضفة نهر حيث كانت زوارق بانتظارنا. تركنا عرباتنا وصعدنا في الزوارق التي سيرّها بعض الرجال بالتجذيف اذ لم تكن الريح كافية لرفع الاشرعة. وظن ابي ان الحرس سيعودون من هنا ولكنه دهش عندما رأى الحرس يدخلون الماء بخيولهم ويصاحبون الزورق. وعندما سأل: هل يتبع هؤلاء الرجال الزورق طول الطريق، اوضح له نقيب الاشراف: بما ان الوالي امرهم ان يحرسوه حتى الزبير، فانهم سيظلون يتبعوننا مادام الماء ضحلاً والنهر عريضاً، وعندما يضيق النهر فانهم سيسيرون على اليابسة. كان هذا الطريق قبل سنوات يعتبر خطراً لوجود قطاع الطرق ولكنه اصبح الآن اكثر أمناً، ولكن يفضل ان لايخرج المسافرون دون حراسة. ودخل الزورق بعد فترة جدولاً ضيقاً جداً، فبدل الحرس موضعهم: اذ تقدمونا مشى وساروا امامنا على خيولهم بمسافة تقرب من ٣٠٠ باردة. يبدو انهم قد اتخذوا نظام الكشافة ترتيباً لهم، وساروا بهذه الطريقة في الصحراء لكي يستطيعوا التطلع الى كل جهة. وبعد ان امضينا قرابة اربع ساعات صرنا نرى على يميننا ضريح طلحة وامامنا ضريح الزبير. وقص لنا ابي بناء على طلب محبوب حكاية مقتلهما في واقعة الجمل. . . ورأينا على مسافة قصيرة من هذين الضريحين منارة صغيرة. . .

وبعد ان قطعنا مسافة قصيرة، خرجنا من زوارقنا وركبنا الى الزبير القريبة جداً. استقبلنا شيخ الزبير، خالد باشا، ودعانا الى بيته، ومنه ذهبنا الى ضريح الزبير وقرأنا الفاتحة، ثم زرنا ضريح الحسن البصري ومحمد بن سيرين، في الوقت نفسه، وهو مجاور له. عاش هذان الوليان في ايام حكم الخليفة هارون الرشيد. واشتهر محمد بن سيرين بتفسير الاحلام. ويقال ان زبيدة خاتون[١١] زوجة هارون الرشيد رأت حلماً غريباً ذات ليلة فارسلت في صباح اليوم التالي احدى وصيفاتها الى محمد بن سيرين تقول له انها (اي الجارية) نفسها قد رأت ذلك الحلم. فلما استمع اليها محمد بن سيرين قال لها ان الحلم ليس لها، بل لاحدى الشخصيات من ذوات المقام الرفيع. وعندما بلغت الجارية رسالتها الى سيدتها امرتها ان تعود اليه وتقول ان زبيدة خاتون هي التي رأت الحلم في المنام، فقال محمد بن سيرين ان زبيدة خاتون ستقوم في وقت قريب بعمل جليل وكريم ويعم نفعه على بني الانسان والحيوان على حد سواء. وبعد وقت قصير شقت زبيدة خاتون قناة من سوريا الى الكعبة[١٢]، ومازالت الى يومنا هذا تزود المسافرين والحيوانات بالماء، وهي المصدر الوحيد للماء في تلك الصحراء الخالية من الماء.

ثم ذهبنا لرؤية خيول خالد باشا. ولما وصلنا الى هناك وجدنا ان خالد باشا لايستولد الخيل النجدية بل يحصل عليها قريب له يعيش في نجد. كان نحو اربعين حصاناً مربوطة بحبال في اسطبل يتكون من مبنى مربع يحيط به جدار من طين. وبما ان اغلب هذه الحيوانات قد وصلت اليه من نجد منذ وقت قريب ولم تستعد قوتها تماماً، فانها كانت مرهقة من طول الرحيل ولم تكن في حال طيبة. تفحصها ابي جميعاً وبين اهم مزاياها. كان بينها بعض الخيل العراقية ايضاً، لذا استطعنا ان نقارن بين الفئتين. وعندما اوشكنا ان نغادر دعا نقيب الاشراف خالد باشا الى ضيعته الريفية التي كنا ذاهبين اليها. فرافقنا بعربته الخاصة يتبعه عشرون عربياً ممتطين صهوات الجياد التي رأيناها تواً وبالرغم من حداثة وصولها فانها كانت حسنة التدريب وتطيع فرسانها تماماً.

انه لمنظر رائع ان ترى العرب ممتطين خيولاً نجدية ويسيرون خبباً امامنا. وكان العرب ينشدون معاً في فترات قصيرة اناشيد حربهم التي تتغنى ببطولات اجدادهم. سرنا على هذا المنوال ساعة ثم وصلنا ضيعة نقيب الاشراف التي تدعى الربضية. وفيها نصبوا لنا خياماً. وتفقدنا، قبل كل شيء، خيول نقيب الاشراف. وكان عددها حوالي اربعين، ولد اكثرها في هذا المكان. وتفقدنا ايضاً بعض فحول الخيل التي افردت عن الاناث. ولم تكن هذه الخيول نجدية صرفاً، بل تجري فيها دماء عراقية.

ذهبنا الى الخيام المخصصة لنا، وبعد ان غسلنا جئنا الى خيمة الغداء. ارتحنا بعد الطعام حتى الساعة الرابعة، ثم خرج ابي ومحبوب وانا معهما يصحبنا ابن نقيب الاشراف الاصغر حميد بك، راكبين خيولاً في السهل الفسيح الذي يمتد حولنا. وكنا قد جلبنا معنا عصي البولو وكراتها [اي الكرة والصولجان]، واوتاد خيام ورماح، واجرينا سباق رفع الاوتاد امام مخيمنا، ثم قمنا انا ومحبوب

وغلام مرتضى بلعبة البولو على خيول النقيب. وعندما كنا نتسابق برفع الاوتاد تجمع جمهور من المشاهدين لرؤية شيء جديد تماماً بالنسبة اليهم ولايعرفونه. ولاريب انها المرة الاولى التي تجري فيها لعبة البولو في الجزيرة العربية.

وجلبت في صباح اليوم التالي نياق الى المخيم وحلبت امامنا. حلبت انا ومحبوب هذه النياق ايضاً. عملية الحلب سهلة جداً اذا ماقورنت بالبقر او الجاموس. شربنا جميعاً شيئاً من الحليب الذي كان طيباً جداً. وقال لنا نقيب الاشراف ان هذه النياق مخصصة للحلب ويجري اطعامها وفقاً لذلك. واشار الى ناقة قال انها فقدت وليدها بعد ولادته مباشرة، فاولعت بصبي عربي، ابن راعيها، واعتبرته صغيرها. وبالرغم من مرور ثلاثة اشهر على فقدانها صغيرها، فانها ماتزال متعلقة بالصبي العربي، وتتبعه اينما سار. واذا مانظاهر احد من الناس باذية الولد فانها تظهر غضبها وتركض وراءه مؤذيه. ولاتدر الحليب في الصباح والمساء مالم يحضر الولد ويلمس ضرعها اولاً. انه لمن الممتع حقاً ان ترى ناقة تحب صبياً عربياً كأنه وليدها.

وبعد ذلك غادرنا الربضية ووصلنا البصرة في حوالي الساعة الثانية عشرة. وبعد اداء صلاة الجمعة، ذهب ابي لرؤية الفريق طاهر باشا.

السبت ١٥ نيسان ـ غادرنا البصرة في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً على الباخرة النهرية «مجدة». وتوقفنا في اليوم التالي ساعتين في العمارة حيث نزل قليل من ركاب الدرجة الثالثة. يبدو ان هذه المدينة واسعة جداً وفيها بيوت ذات طبقتين تواجه النهر.

الثلاثاء ١٨ نيسان ـ وصلنا الكوت هذا الصباح. وقد تغيرت المناظر تماماً هاهنا على ضفتي النهر. كنا نستطيع رؤية خيام سود على مقربة تعود للبدو ـ حوالي عشرين او خمس وعشرين خيمة مجتمعات ـ وكانت خيول ترعى العشب حول هذه الخيام.

وكان رجلان يرقبان كل قطيع من اربعين او خمسين فرساً. كانت الخيول طليقة تماماً، وكان على ظهر كل واحد منها غطاء اتقاء للبرد والذباب. وعلمنا من العرب الذين في الباخرة ان هذه الخيل جميعاً اناث، وقد ربطت الفحول بعيداً عنها. وكنا نرى كل اربعة او خمسة اميال خيام بدو سود مع خيولهم. وعندما رأينا قطعان هذه الخيول ترعى العشب، تلهفنا لمغادرة الباخرة والذهاب لرؤيتها، ولكن لم يكن في طوقنا ايقاف الباخرة. وكانت النواظير الميدانية في ايدينا دوماً. وكانت المشاهد على ضفتي النهر اروع مايمكن منذ ان غادرنا البصرة، ولكن اكثر ماامتعنا هي قطعان الخيول العربية التي كنا نراها كل مسافة اميال قليلة.

الخميس ٢٠ نيسان ـ مررنا هذا الصباح بسلمان باك. كان يعرف هذا المكان قديماً بالمدائن. وقد كانت مدينة واسعة جداً فيها مقر للحكم، ولم يبق منها الآن سوى جدران قليلة مهدمة. قريب الى هذه الخرائب مرقد سلمان. وقد كانت هذه المدينة قبل قرابة ١٣٠٠ عام واحدة من اكثر مدن البلاد العربية كثافة بالسكان. واشتهرت المدائن في جميع انحاء البلاد العربية بحكمائها وشعرائها ومؤلفيها ومركزها العلمي. اما اليوم فلا يرى فيها الا قليل من الاكواخ الطينية وبعض القطعان من الاغنام، بينما ذهل الرحالة قبل ثلاث مئة عام بثراء هذه المدينة الرائعة وجمالها وابهتها وفخامتها ومجدها.

وصلت الباخرة بغداد في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. كان على ضفتي النهر بيوت من طبقتين ملحقة بها حدائق صغيرة حسنة العناية جميلة الترتيب، فيها مختلف انواع الزهور واشجار الفاكهة، وكان الناس جالسين في شرفات بيوتهم يستمتعون بالمنظر الذي امامهم.

مررنا بعد فترة وجيزة بمختلف القنصليات الاوربية وعرفنا المباني التي تخص امماً مختلفة من اعلامها. رست باخرتنا امام دار الگمرك. وجاء لاستقبال والدي السيد داود افندي (ابن المرحوم نقيب الاشراف السابق) والسيد محي الدين (ابن نقيب الاشراف الحالي) والسيد محمود افندي، واصطحبونا الى دار نقيب الاشراف. وكنا قد سمعنا ان موظفي الگمرك يسببون كثيراً من المشكلات للمسافرين بفتح جميع حقائبهم وفحص محتوياتها بدقة. وكنا نحمل معنا بعض المسدسات والبنادق وتوقعنا ان نواجه شيئاً من المزعجات، ولكن لم يتعرض احد لامتعتنا. وبعد ان قابلنا السيد النقيب ذهبنا الى مرقد «الغوث الاعظم»[٣٠]، وقرأنا الفاتحة، وركبنا الى الدار الذي وضعه نقيب الاشراف تحت تصرفنا. وكان من طبقتين يحيط به بستان كبيرة. ودهشنا لما دخلنا حجرة الاستقبال لما وجدناها مؤثثة حسب الطريقة الاوربية ويتجلى فيها الذوق والترتيب. كانت الارائك والكراسي مغطاة بحرير من طراز لطيف جداً، وينسجم لونها مع لون الستائر. وكانت طنافس نفيسة مفروشة على الأرض، وزينت الجدران بالرسوم الملونة.

وكانت الى جوار حجرة الاستقبال حجرة نوم والدي التي كانت تحتوي على كل وسائل الراحة والى جوارها حجرة الطعام حيث وضعت منضدة لاربعة اشخاص عليها ملاءة بيضاء ومناديل مائدة ـ كان كل شيء في الحقيقة كاملاً.

نزل ابي في صباح اليوم التالي تمشى في البستان الجميلة. فيها مختلف انواع اشجار الفاكهة، ولكنها لم تكن تحمل ثمراً، اذ ان الموسم هنا يبدأ في شهر تموز. وتحتوي البستان ايضاً على انواع مختلفة من الزهور. وكانت اشجار البرتقال مزهرة امتزج عطرها الفواح بشذا الورود. تنمو اشجار البرتقال الى ارتفاع عظيم في هذه البلاد، ويكاد يبلغ ثلاثة اضعاف ارتفاعها في حيدر آباد. وعندما دخلنا ذلك الجزء من البستان حيث زرعت شجيرات الورد، ذهلنا بحسنها فوقفنا طويلاً بلا حراك نتملى المنظر الأخاذ امامنا. انحنت اغلب الغصون حتى كادت تنكسر تحت ثقل الورود التي لاتحصى، كانت متفتحة بلون الدم. قال لنا ابي ان يأخذ كل واحد شجيرة ويحصي الورود المتفتحة فيها. حسبت ستين وردة وابي ستاً وخمسين ومحبوب خمسين. ان الامر في الحقيقة يتطلب مراجعة القاموس دوماً بحثاً عن نعوت مناسبة لوصف حسن هذا المكان من شجيرات الورد حيث بدا جزء كبير من تحت الاشجار احمر اللون من ورق الورد الساقط من الزهور. واني لن اتولى هذه المهمة التي انا موقن اني لن افيها حقها اذ انها تتطلب قلماً متمكناً في الوصف نابضاً بالحياة ابرع من قلمي المتواضع هذا الذي ليس الا مبتدئاً في فن الادب. اينما توجهت في البستان وجدت دلائل هبات الطبيعة السخية وكان كل شيء يتعلق بها مكتملاً، ولكن كتب من الناحية الاخرى الاهمال وعدم الاهتمام بحروف كبيرة. وبدت الطبيعة محرومة من يد البستاني الماهر التي تقدم لها العون. وكانت الاشجار كثيفة والارض بينها مليئة بالادغال ـ ولقد تحدث، في الحقيقة، الف شيء صغير آخر عن الاهمال والحاجة الى العمل. الارض خصبة للغاية والمياه وفيرة. واني موقن ان مجال التطوير في هذه البستان فسيح، لو وجد الاهتمام بمؤونة الطبيعة.

ذهبنا في الساعة الثانية عشرة الى المسجد المجاور لمرقد «الغوث الاعظم». وتوجد فسحة صغيرة على جهة من المسجد محاطة بتعريشة، يجلس فيها نقيب الاشراف ووالي بغداد والسر عسكر (اي القائد الاعلى للجيش) عند صلاة الجمعة. واخذنا السيد النقيب الى ذلك المكان. وبعد الصلاة قرأنا الفاتحة في المرقد ثم تمشينا الى دار السيد النقيب الذي يقابل المرقد، وكان الوالي والقائد الاعلى يؤدي مع جميع الموظفين وشخصيات بغداد صلاتهم في هذا المسجد في ايام الجمع ثم يذهبون بعد ذلك الى منزل نقيب الاشراف ويمكثون قليلاً.

يطلق اسم نقيب الاشراف على الشيخ الاكبر القائم بامور مرقد حضرة «الغوث الاعظم» وله نفوذ كبير في بغداد ويحتل مركزاً مهماً في ادارة البلاد. وقد عين نائب رئيس مجلس بغداد، والرئيس هو الوالي. وثمة ثلاثة اعضاء آخرين، وبهذا تدير اللجنة المكونة من هؤلاء جميع شؤون ولاية بغداد، وتعقد ثلاثة اجتماعات في الاسبوع.

وذكر ابي في بغداد للوالي والموظفين الآخرين رغبته في رؤية خيول من سلالات نبيلة مختلفة. فقالوا له ان كاظم باشا معروفٌ بامتلاكه افضل الخيول في بغداد، ولكنه لسوء الحظ مسافر الآن. وتعهد الوالي وشخصيات أخرى ان يرسلوا خيولهم اليه لمعاينتها، وطلبنا ايضاً ان يجلب بائعو الخيل مايرغبون في بيعه من الخيل. وصرنا من اليوم التالي نرى جموعاً من الخيل امام بيتنا، بعضها تخص شخصيات مختلفة وبعضها تعود للبائعين انفسهم. اشترى والدي ثلاثة افراس لكي نستطيع الخروج راكبين عليها. وعندما رأى البائعون ان ابي كان يريد ان يشتري خيلاً، بدأوا يتقاطرون علينا زرافات، واهتبلنا فرصة رائعة في رؤية خيول عربية وعراقية، وبيّن لنا ابي المحاسن والمساوىء في الخيل بشكل واضح. وصرنا نرى كل يوم، طوال اسبوعين، عدداً كبيراً من الخيل، ولكننا لم نرَ، باستثناء فرس واحدة، اي حصان لايضاهيه حصان في اصطبلات صاحب السمو. الفرس التي المعنا اليها آنفاً تعود الى داود بك بن محمد باشا، القائد العام. واعجب ابي بها كثيراً كان ارتفاعها ١٥ قبضة[١١] واصيلة، مليحة جداً، ذات رقبة جميلة وترفع ذيلها بشكل ممتاز عند عدوها. وبذل والدي قصارى جهده لكي يشتري هذه الفرس، غير ان داود باشا لم يبعها.

فكر ابي بعد ذلك بالذهاب الى الاماكن التي تربى فيها الخيول العربية. وعلمنا بعد استفسارنا ان اعداداً كبيرة من الخيول تربى في الموصل ومابين النهرين[١٢]. يقتضي الوصول الى هذه الاماكن سفراً يستغرق عشرة ايام. فتحتم علينا ترك الفكرة وفكرنا بالذهاب الى اماكن قريبة كالمحمودية والمسيب والحلة، الخ... ولما علم مضيفونا واصدقاؤنا اننا ذاهبون الى داخل الجزيرة

العربية، جاءوا الى ابي واخبروه انه بسبب فيضان نهري الفرات ودجلة فان الريف قد غمرته المياه، وان الرحلة التي ازمع القيام بها ستسبب له كثيراً من المضايقات. غير ان ابي قال انه جاء الى البلاد العربية مصادفة وان لم يذهب الى داخل البلاد الآن فلعله لن يكون قادراً على رؤيتها ابداً.

اهل مدينة البصرة وبغداد وكربلاء والنجف الاشرف والكوفة والحلة والمسيب والمحمودية الذين شاهدناهم في سفراتنا، يلبسون ثياباً تتكون من سترة طويلة تصل الكاحلين وحزام حول الخصر - وفوق ذلك معطف فضفاض يدعى العباءة. اما لباس الرأس فيتكون من قطعة قماش مربعة، صنعت خصيصاً لهذا الغرض، تطوى في شكل مثلث فتعرف بالزبون[٦٦]، وتغطي الرأس وتنحدر على الظهر وتغطي الاذنين ايضاً. وتثبت في مكانها بحبل سمكه نصف عقدة من وبر الجمال، ويضغط على الزبون (كذا) في دائرتين ويسمى العقال. اما لباس الترك الذين رأيناهم فيتكون من ملابس انكليزية اعتيادية مع الفيز[٦٧] على الرأس. اما علماء الدين والمتعلمون فيلفون قطعة قماش حول الطربوش.

تتألف البيوت عموماً من طبقتين، وتؤثث الغرف بارائك (تخوت) تصف قريباً من الجدران الاربعة، ويغطي الارض بساط نفيس، وليس من المعتاد في هذه الاماكن ان يجلسوا على الارض. الفئة المرفهة من العرب والاتراك يتناولون الطعام على منضدة ولاتقدم صحون الاكل واحداً بعد آخر بل ترتب على المائدة قبل بدء الاكل. ويستعمل الاتراك سكاكين وشوكات. اما اهالي العراق فلايستعملونها. والقهوة منتشرة الاستعمال بشكل واسع.

السبت ٤ أيار - في الساعة السابعة صباحاً، انطلقنا من بغداد. وارسل الآلاي قومندان، اثنين مفتشي الشرطة، شرطيين لحراستنا قائلاً ان الطرقات غير آمنة تماماً ومن المستحسن ان يكونا معنا. ركبنا من بيوتنا عربات حتى جسر بغداد الذي يربط ضواحي بغداد القديمة بالجديدة الواقعة على ضفتي نهر دجلة. ولما كان الجسر مكوناً من زوارق فلم يكن من الامان عبوره في عربة. وقد كانت خيلنا حاضرة هنا، فتركنا العربة وعبرنا راكبين الخيل. كان في الواح الجسر صدوع واسعة مما تعرض الخيل للخطر بوقوع حوافرها فيها، غير اننا عبرنا بحذر شديد. وبعد ان اخترقنا بغداد القديمة، وصلنا الى منبسط من الماء (نتيجة الفيضان)[٦٨] فتركنا خيلنا وعبرنا في قوارب مدورة تشبه السلة تماماً تسمى محلياً «لقفة» ثم مشينا مسافة تقارب الميل ووصلنا الى منبسط آخر من الماء عبرناه بالزوارق ووصلنا الى محطة البريد حيث وجب علينا ان نسافر في عربات البريد التي تشبه الحافلة الكبيرة وفيها عربش اضافي قوي واذرع عريضة شدت بها اربعة خيول جنباً الى جنب بعُدتها. دهش ابي بفكرة اربعة دواب تجر بهذه الطريقة وقال انه سيتخذ هذه الوسيلة في عربات نقل امتعة صاحب السمو لدى عودته الى الوطن. وعندما قطعنا مسافة قصيرة في هذه العربات، اعترض طريقنا واد عريض[٦٩] أقيم عليه قنطرة عرضها اربع اقدام تقريباً لعبور العربات. وصل الماء في الجدول بسبب فيضان نهر دجلة الى مستوى القنطرة التي كانت في حالة سيئة، ولما قطعت عربتنا نصف المسافة تقريباً انزلقت العجلة اليمنى وغاصت في الجدول وبقيت العجلة اليسرى على القنطرة. وانزلق بغلان في الماء وبقي واحد على المنحدر والرابع في الطريق. وخشينا ان تنقلب العربة ولكنها لحسن الحظ لم تنقلب وبقيت في توازن قلق ودهشنا للسبب الذي منعها من الانقلاب. خف الينا بعض الناس الواقفين على الجانب الآخر وحملونا على اكتافهم ثم اخرجت البغال وسحبت العربة بصعوبة بالغة، ثم استأنفنا السفر، وكان علينا ان نعبر جدولاً بين كل ميلين او ثلاثة اميال، وكان بعضها جافاً، بينما كانت الاخرى تحتوي ماءً.

المسافة بين بغداد وكربلاء قرابة ستين ميلاً، وفيها اربع مراحل حيث تستبدل البغال. وصلنا كربلاء في الساعة العاشرة مساء بعد رحلة مضنية، وكان نقيب اشراف بغداد قد هيأ لنا بيتاً مكثنا فيه. وفي صباح اليوم التالي ذهبنا الى «الدورغاه» اي المرقد وصلينا هناك.

مرقد الامام الحسين محاط ببناء منيف فسيح مربع الشكل، في كل جهة منه باب عملاق قوي جداً. وحول الساحة بيوت جليلة من طبقتين يسكنها علماء الدين والطلبة. ضريح الامام ومنائره الاربع المذهبة في وسط الفناء المربع، وحول القبر سياج مربع من الفضة المشبكة.

وبعد ذلك ذهبنا الى مرقد حضرة العباس القريب وهو اصغر من الاول في بنائه. وبعد ان قرأنا الفاتحة فيه عدنا الى بيتنا في الساعة التاسعة. وفي المساء ركبنا الى الموضع الذي كان فيه مخيم الامام الحسين اثناء المعركة، ثم ذهبنا الى مرقد حضرة اخر.

وفي صباح اليوم التالي غادرنا بعربات البريد الى النجف الاشرف وهي تبعد خمسين ميلا من كربلاء. كان الطريق في الصحراء جيداً جداً نوعاً ما. وتوجد «خانات» في كل اثني عشر ميلاً لراحة المسافرين. وكانت المياه في كل هذه المناطق بسبب الفيضان في الاسبوع الماضي. وبالرغم من انه جف الآن الا ان الطريق مازال رخوا جداً وتغوص عجلات العربات عميقاً في الاوحال ولذلك فقد كانت البغال تسير ببطء ومشقة. كانت الحرارة اثناء النهار شديدة جداً، ولحسن الحظ كان النسيم لطيفاً فلم نشعر باثر الحرارة كثيراً. وصلنا النجف الاشرف في الساعة العاشرة مساء ونزلنا في الدار الذي هيأه لنا نقيب اشراف بغداد.

ذهبنا في اليوم التالي الى مرقد حضرة علي المرتضى الذي يشبه المرقدين في كربلاء من حيث بنائه. وفي الضريح ثلاثة قبور لـ: علي المرتضى وآدم ونوح. وبعد قراءة الفاتحة تمشينا في المدينة قليلاً ثم عدنا الى بيتنا. واردنا الذهاب الى مدينة الكوفة ولكننا لم نستطع لان الطريق اليها غمرتها مياه الفيضان.

وزارنا عصراً قائم مقام او طالقدار النجف الاشرف مصطفى باشا. وسمعنا منه ان النهر قد فاض مرة اخرى في ليلة امس، وغرقت معظم الطرق كما حصل قبل اسبوعين، وهذا السبب فان عربات البريد، التي كان مفروضاً ان تصل في الصباح، تأخرت هذا السبب وسوف تتعطل وسائط النقل اياماً قلائل. وعندما سمع والدي ذلك قال انه لاينوي البقاء اكثر من هذا بعد ان ادى الزيارة الى اضرحة الائمة، واذا كان من الممكن اجراء ترتيبات لتهيأة عربتين، فانه يود الرحيل في المساء. وكما قيل لنا في بغداد اننا لانستطيع وصول غايتنا بسبب الفيضان، فاننا وصلنا النجف الاشرف بطريقة او اخرى. وقال مصطفى باشا ان من الممكن جداً تدبير امر العربات، غير اننا سنواجه مصاعب كبيرة في الطريق بسبب الامطار الغزيرة التي ستجعل العربات عرضة ان تغوص عجلاتها في الطين، ولكن ابي كان قد عقد العزم. فارسل مصطفى باشا العربات وغادرنا النجف الاشرف في الساعة الثالثة عصراً. سرنا طوال الليل ووصلنا كربلاء في صباح اليوم التالي، ثم غادرناها في التاسعة زوالية الى المسيب، وبقينا نسير في طرق جيدة حتى الساعة الثانية صباحاً، عندما وصلنا الى بقعة طغى عليها ماء الفيضان بشكل غزير مما صعب على البغال ان تسحب العربة في هذا الجزء المغمور بالماء بالرغم من المحاولات الممكنة في مساعدتها. لذلك فككنا عدتها واخذناها الى مرتفع من الارض. وباءت جميع جهودنا بالفشل في سحب العربة في هذه الارض المغمورة بالماء من الساعة الثانية حتى الرابعة. وقررنا في الساعة الرابعة، مادام الامر مستحيلاً علينا ان نخرج العربات، ان افضل مانقوم به هو ارسال رجل الى المسيب التي تبعد مسافة اربعة اميال لكي يجلب لنا بعض الخمالين لنقل امتعتنا اليها. وعلى هذا فقد ارسلنا صوبه دار"" عبد القادر (من فوج ميرام) واسماعيل افندي في هذه المهمة.

وصل الصوبه دار قبل شروق الشمس مع بعض الموظفين والخمالين ونقلنا الخمالون على ظهورهم الى ارض يابسة وتركنا العربات في محلها، وتوجهنا الى المسيب على خيل وبغال. وقررنا ان نتجه جنوباً الى الحلة وبابل، فقد كنا نرغب في رؤية الآثار المهملة لمدينة بابل القديمة، وقد سمعنا ايضاً ان العشائر العربية التي تمتلك اعداد كبيرة من الخيل تسكن في تلك المنطقة. توجهنا الى الحلة التي تبعد ٢٤ ميلاً من المسيب في الساعة التاسعة صباحاً في زورق شراعي، وبما اننا كنا نسير مع التيار فان تقدم الزورق كان حسناً. في الساعة الثالثة عصراً وصل زورقنا قرية تقع على ضفة النهر. لاحظنا سحباً سوداً في السماء باتجاه الغرب، وشاهدنا ايضاً عاصفة ترابية تتقدم نحونا، ولم نر شيئاً على مد البصر غير الغبار.

قال ربان الزورق الشراعي الذي يسمى صاحب السفينة ان عاصفة ترابية ستمر علينا فحول الزورق الى الشاطيء بسرعة عظيمة. وماكدنا نلتجيء الى مقهى قريب حتى اجتاحت العاصفة، التي تنبأ بها صاحب السفينة، المكان وظلت محتدمة شيئاً من الوقت. واظلمت الدنيا ولم نستطع رؤية شيء غير الغبار في كل مكان.

كانت الريح تهب بقوة شديدة بحيث بدت اشجار التوت التي امامنا كأنها ستقتلع من جذورها. وماكادت العاصفة تهدأ

قليلا، حتى انذر رعد بعيد باقتراب المطر الذي انهمر مدراراً فابتلت الاشياء التي تركناها في السفينة. وحسن حظنا فان العاصفة، بالرغم من عنفها، كانت قصيرة وانجلت سريعاً، ومع ذلك لم يوافق صاحب السفينة على المسير اذ انه كان يخشى غرق السفينة. على انه بعد مساع كثيرة في اقناعه، استأنف الرحلة دونما رغبة منه. وكانت الريح مواتية، فرفعت الاشرعة وتقدمنا مسافة قصيرة بسرعة عظيمة، ولكن الريح غيرت اتجاهها فجأة وبدلاً من ان تسير السفينة في وسط النهر اتجهت نحو الشاطيء. وحاول العرب انزال الاشرعة وهم يتحدثون كثيراً ويصيحون، صاخبين، قبل ان ينجحوا في مسعاهم ارتطمت السفينة بقوة بالشاطيء. وحسن الحظ لم تكن على ضفة النهر صخور، بل طين وتراب انهمرا في السفينة. ومرت الازمة دونما ضرر خطير، وفرح صاحب السفينة وهتف قائلاً بالعربية: مسنا الضر ومرّ ولم يترك فينا اثراً. ثم صار النواخذة يسحبون السفينة بالحبال ويدفعونها بالمرادي في الوقت نفسه.

وصلنا بابل في حوالي الساعة التاسعة مساءً. والحلة على بعد اربعة اميال من بابل وكان عملدار[1] المسيب قد خابر من اجل تأمين راحتنا ـ وامضينا الليلة في راحة تامة في بيت احد اصحاب الاراضي اسمه ملا ابراهيم. ·وزرنا في صباح اليوم التالي آثار بابل التي انشأت في سنة ٢٢٣٢ ق . م عاصمة لارض شنعار. وبلغت اوج مجدها اثناء حكم نبوبولاصر وابنه نبوخذنصر، وكما يقول هيترو دانسن[2] انها كانت مربعة الشكل طول كل ضلع منها اربعة عشر ميلاً. ويجري الفرات من وسط المدينة، وعلى ضفتيها مرافيء. وكانت المدينة محاطة بسورين، وعلى الضفتين تحصينات ثانوية. وقد جرت في السنوات الاخيرة الماضية تنقيبات وكشف عن بعض القصور والبيوت الخربة، وعن تماثيل ونقود قديمة، نقل اغلبها الى متحف اسطنبول والى بعض المتاحف الاوربية الكبيرة، ولكن بعض التماثيل الكبيرة مايزال يرى بين الأثار واشهرها تمثال اسد تحته انسان، ويظن ان ذلك يمثل قوة نبوخذنصر. اخذنا قليلاً من الطابوق من هذا المكان للذكرى، وعليها كتابة غريبة، لعلها اسم الملك نبوخذنصر، فيقال ان كل طابوقة مكتوبة تحمل اسمه.

تركنا بابل في الساعة التاسعة صباحاً في عربات البريد ووصلنا المحمودية في حوالي الثانية عشرة. وعلمنا ان على بعد قريب غمرت المياه قسماً كبيراً من الطريق، واستعملت الزوارق هناك للعبور. وصلنا الى ذلك المكان في الساعة الرابعة عصراً وتركنا عرباتنا وذهبنا في الزوارق. فاض ماء الفرات وغمر هذه المنطقة، استغرق عبورنا الى الجهة الاخرى حيث الارض اليابسة ساعة ونصف الساعة. ولسوء حظنا فاتتنا عربات البريد في هذا المكان فقد وجدنا انها غادرت قبل ساعة من وصولنا. وعندما سمع والدي ذلك، قال لحبيب عبد القادر ان يذهب الى خيم البدو التي يمكن رؤيتها على بعد قريب ويتفق معهم على نقلنا. ذهب عبد القادر في مهمته وعاد بعد نصف ساعة تقريباً ومعه فرس وحماران حصل عليها بمشقة من احد البدو وهو مالكها الذي جاء يصحبها.

تركنا جميع خدمنا وامتعتنا في البرية بمسؤولية الدكتور عنابة علي خان. ركب والدي المهرة البدوية وعليها سرج عتيق شد به حبل رفيع بدلاً من الركاب. وركبنا انا ومحبوب الحمارين. وبدأنا رحلة العشرين ميلاً الى بغداد، التي كانت متعبة، مليئة بالمغامرات. ونصب صبي بدوي، يدعى بمعرفة الطريق، نفسه دليلاً لنا. كان تقدمنا بطيئاً بسبب المشاة الذين معنا. وبعد ان قطعنا نصف الطريق خيم الظلام وكان علينا ان نستدل طريقنا في ضوء النجوم الباهت. ولاحت في الساعة التاسعة اضواء بغداد من بعيد، وفرحنا بفكرة وصولنا الى بيتنا بعد وقت قصير والجلوس الى تناول عشاء شهي، ولكن لسوء حظنا لم يتحقق ذلك لان دليلنا الصغير ضيع طريقه في الظلام ووجدنا انفسنا نسير في سواقي وحقول مزروعة حديثا وهذا كانت الارض موحلة وسماء الطريق جداً بحيث لم تستطع الفرس التي كان يمتطيها والدي والحمير التي كنا نركبها خطوة واحدة دون ان نكبو فترجلنا وواصلنا السير على ارجلنا. وكان من المستحيل علينا تمييز طريقنا بسبب الظلام، فجعلنا انوار بغداد نجومنا الدالة. وبعد مشي ثقيل في الحقول فترة من الزمن وصلنا الى منبسط من الماء في وسطه حائط ارتفاعه قرابة اربعة اقدام وعرضه قدم ونصف القدم، وكان في اغلب الظن حداً فاصلاً بين بساتين غمرتها مياه الفيضان.

قال لنا دليلنا انه ينبغي علينا ان نصعد الحائط، وكنا مضطرين لاتباع ارشاداته فصعد ابي اولاً وتبعناه. وقاد البدوي الآخر وحبيب عبد القادر الفرس والحمارين في الماء والطين قدر طاقتهما.

لم يكن من اليسير قط السير على هذا الجدار الضيق في الظلام، اذ ان زلة قدم واحدة توردنا الماء. بدا نصف الميل هذا كأنه لن ينتهي ابداً. وكانت الريح في الوقت نفسه قارسة البرد، فكان ذلك مرهقاً لأبي الذي كان مايزال ضعيفاً بسبب حادث سيارته. وبعد مرورنا في بعض الازقة الضيقة والمظلمة في حوالي الساعة العاشرة مساءً وصلنا الجسر على نهر دجلة، حيث كان في الجهة الاخرى منه مقهى كبير، جلس فيه مئات من العرب يشربون الشاي والقهوة.

دخلنا المقهى وشرب كل منا قدحاً ساخناً من الشاي، مما اعاد الحياة الينا، ثم وصلنا مقرنا في الساعة الحادية عشرة ليلاً. ولما كنا قد ارهقنا طول السفر في ذلك اليوم فلم نتوان عن الذهاب الى الفراش بعد العشاء. وجلب رجالنا امتعتنا التي تركناها خلفنا في اليوم التالي.

في زمن الخليفة المنصور، كانت الكوفة مقر الحكومة العربية، وبما ان مناخ الكوفة لم يكن صحياً وكان الماء نزراً في تلك البقاع، ارسل الخليفة عدداً من رجالاته الى اماكن مختلفة من البلاد العربية ليختاروا موقعاً مناسباً لبناء عاصمة جديدة. فخرج، بناء على ذلك، كثيرون يبحثون، وبعد زمن عاد رجل منهم يدعى علي بن يقطين باخبار بقعة خصبة من الارض على ضفة دجلة، لامسكن فيها سوى معبد يقيم فيه برهمي. وقال ان المكان بديع المنظر وان مناخه يساعد على الصحة وفيه اشجار فاكهة كثيرة تنمو على ضفتي النهر. فلما سمع الخليفة بهذا الوصف، خرج بنفسه ليلقي نظرة الى المكان ـ الذي تقع فيه بغداد اليوم. استحسن المكان كثيراً وامر مهندسيه ان يرسموا خطة المدينة الجديدة.

وتأهب المنصور للعودة الى الكوفة من اجل ان يرسل المواد منها لاقامة عاصمته الجديدة. وكان احد الامراء خارجاً للصيد فمر بالمعبد الذي قرب النهر ووجد برهمياً منهمكاً في عبادته. وعندما رأى البرهمي الرجل يقترب منه، سأله عن سبب اقامة المنصور مخيمه قرب دجلة، فاجاب الامير ان الخليفة المنصور اعجب بالمكان كثيراً وانه يتأهب لبناء مدينة عليه. فلما سمع البرهمي العجوز ذلك، قال: «اذهب وقل له انه لن يستطيع تحقيق امله، لانني سمعت من اسلافي ان الرجل الذي قدر له بناء مدينة في هذا المكان الجميل اسمه مقلاص». فدهش الامير كثيراً لدى سماعه ذلك، فقد كان مقلاص مشتهراً في البلاد العربية قبل مئتي سنة. فتقدم الامير الى المنصور ووقف امامه متفكراً. وعندما رآه الخليفة في هذه الحال سأله عن سبب تفكره فقص عليه ماسمع من البرهمي، فدهش المنصور كثيراً وقال: «اما والله الذي خلقني انا مقلاص». فتعجب الامير من قول الخليفة، فروى المنصور له الحكاية كما يأتي: عندما كنت صغيراً اتفقت مع ابناء عمومتي الصبيان ان يدعو كل واحد منا اصحابه الى طعام العشاء بالتناوب. فكان الصبي يدخر دنانير قليلة ليشتري طعاماً يدعو اليه الآخرين. جاءت نوبتي لضيافتهم ذات ليلة فلم اجد مالاً انفقه على شراء طعام. وكنت اعلم ان عمتي تخفي قليلاً من الدنانير، فلم يكن لي معدى من اخذ تلك الدنانير واشتريت طعاماً بها دعوت ابناء عمومتي اليه. وبعد ايام قلائل احتاجت عمتي دنانيرها التي اخفتها فلم تجدها. وحامت شبهاتها حولي وعندما رأتني صاحت بي: «يامقلاص انت سرقت نقودي» فانقضيت فما بما فعلته. وبينت فما ماوجب علي عمله لضيافتي ابناء عمومتي. وظلت منذ ذلك اليوم حتى نهاية حياتها تناديني مقلاصاً، ولكن لم يعلم بذلك احد سواها وسواي».[٣٣]

ولما رويت القصة للبرهمي الحكيم، اخذ طالع المنصور في النجوم، فقال: «هذا هو حقاً من قدر له ان يؤسس المدينة على ضفة دجلة». وبعد سنوات قليلة اكتملت المدينة وسميت بغداد، او بستان العدل، ونقل المنصور اليها مقره وعاش فيها سنوات عديدة.[٣٤]

رأى والدي اغلب الخيل في بغداد ورغب كثيراً في شراء حصان بني محمر نجدي، غير ان صاحب الحصان، وهو عربي ثري، رفض رفضاً قاطعاً بيع الحصان قائلاً: «يمكنك ان تأخذ اي مايعجبك من هذه الخيل. ولكنني لااسمح لاي حصان من نسل الصقلاوي الجدرانية ان يخرج من هذه البلاد، هذا النسل الخاص، من تربية فخذ عشيرتنا، الذي لم يحصل العرب على مثيل له». ولما رأى والدي عدم امكان اقناع هذا العربي بالتخلي عن الحصان، فلم يجد افضل من ان يطلب الى حضرة السيد محمود

افندي (ابن حضرة نقيب الاشراف)، المرشد الديني بجميع القبائل العربية الذي يكنون له احتراماً عظيماً، ان يتوسط في القضية. وعندما ذهب هذا الرجل الديني بنفسه الى صاحب الحصان وطلب منه، لم يجد العربي مناصاً من الاذعان، وهكذا اتيحت الفرصة لوالدي ان يشتري الحصان بـ ٢,٥٠٠ ربية. كان اسمه «فالح» وينتمي الى نسب خيل الثوسية الصقلاوية الجدرانية عبيان الشرق. واعطى العربي الى والدي نسب «فالح»، مبينا ان هذا النسب محفوظ فترة طويلة لدى عائلته ـ منذ ايام الخلافة العباسية في بغداد. وظل يتحدث عن موضوع الخيل بعض الوقت، وقال انه، حسبما يعلم، لايعرف اي حصان من هذا النسب الخاص قد ارسل الى اي بلد اجنبي قبل هذا.

اطلق العربي الحصان بلا سرج او لجام فراح يجري حولنا مرفوع الرأس والذيل، وبدا كأنه رسم كالصورة الفوتوغرافية المنشورة هنا.

واشترى ابي حصاناً آخر، رمادياً جيلاً اصيلاً من شخص اسمه صالح بن سعيد وكان معروفاً في بغداد كلها. ينتمي هذا الحصان بنسبه الى خيل عنزة الحمدانية، واسمه «سامر». وقال صالح بن سعيد ان اخاه ارسل الى اسطنبول قبل سنتين، لسلطان تركيا.

ودع والدي في ١٢ أيار اصدقاءه العرب جميعاً، وكذلك الميجر رمزي، المقيم البريطاني في بغداد، والسيدة رمزي، زوجته.

قبل يوم رحيلنا، ارسل حضرة السيد عبد الرحمن (نقيب اشراف بغداد، مع والدي حصاناً كميتاً جيلاً هديةً الى صاحب السمو النظام؛ وقد ارسل مع خيلنا الاخرى في الباخرة في ١٢ أيار. وابحرنا الى الهند في ١٣ أيار في الباخرة «خليفة». وفي اليوم الثالث من رحيلنا اي يوم ١٦ أيار رست الباخرة في البصرة.

وجاء السيد رجب افندي الى باخرتنا واخذ والدي في زورق الى قصره القريب، ثم جلبت باخرة صغيرة بقرب باخرتنا ونقلت جميع خيلنا الى باخرة كبيرة مسافرة الى الهند. وفي ١٩ أيار غادرنا البصرة الى بومبي. ووجدنا البحر هائجاً والجو مكفهراً. وصلنا بومبي، بعد رحلة استغرقت تسعة ايام، في ٢٨ أيار. وارتحنا فيها يوماً ثم امضينا اسبوعين في مهابلشوار في بيت جميل خصص لوالدي يشرف على منظر بديع وكان الجو لطيفاً صحياً.

غادرنا مهابلشوار في ١٧ حزيران ووصلنا حيدر آباد سالمين، وفي اليوم الخامس توجهت الى نظام آباد لاستأنف مهام وظيفتي قائم مقاماً لتلك المنطقة.

الحصان العربي

اشرت في قسم سابق من الرحلة الى الارشادات التي تلقيناها عن الحصان العربي وعاهدت ان اقدم تفصيلاتها وهانذا اني بعهدي.

كانت طريقتنا اليومية في تلقي المعلومات كما يلي: اولاً، نأخذ قسماً من الحصان، ونناقش محاسنه ومساوئه بالتفصيل. ثم نعرج على الامراض التي يرثها فندونها وتشرح اعراضها مع ذكر المعالجة التي يجريها البيطري والصحي المغولي، ويتم علاج هذا الثاني بادوية السوق التي يتيسر الحصول عليها في كل مكان تقريباً في الهند. وسادون هنا ماشرحه لنا والدي عن فم الحصان العربي وعينه.

الحصان النجدي، بين الخيول العربية، يستدق فمه حتى يبلغ حجماً صغيراً، لذلك فان من الصفات الرئيسة في الخيول العربية النجدية صغر خطمها. فمحيط خطم الحصان النجدي العربي الجيد ٢ ـ ١٤ او ٣ ـ ١٤ وينبغي الا يزيد على ١٤ ٢/١ عقدة. وليس من اصناف الخيول الاخرى، باستثناء الاسترالية والعراقية، حتى العربية الاخرى مايمكن ان تضاهي النجدية بمثل هذه الافواه المستدقة. ويستحب ان يكون المنخزان واسعين والجحفلتان (الشفتان) رقيقتين لطيفتين، وان تنطبق العليا على السفلى

تماماً، والا تتهدل السفل، وان يكون الفك الاسفل عريضاً مع اتساع بين عظام الفك والا يحتوي لحماً كثيراً. ويتناقل العرب حكاية عن عربي لديه حصان نجدي اعتاد ان يسقيه بالقدح الصغير الذي يشرب منه، مما يدل على جمال فم الحصان العربي النجدي. وشرح لنا ايضاً امراض الفم ومعالجتها، ولكن نظراً لضيق المجال، فاني مضطر الى تركها.

يعتمد الحكم على الحصان العربي كثيراً على عينه. وفي الوقت الذي يمكن تحديد النقاط الاخرى في الحصان، ليس من الممكن وضع قواعد دقيقة وثابتة للحكم على الحصان من عينه. يمكن للحكم الجيد ان يحكم على الحصان من عينه نتيجة للخبرة والتجربة فقط، ويمكن في الوقت عينه ملاحظة الصفات الآتية:

١ ـ هل الحصان هادىء ام شرس؟
٢ ـ هل هو طيّع سهل الانقياد وقابل للتعليم، ام يحتاج وقتاً طويلاً للتعلم؟
٣ ـ هل الحصان عصبي المزاج ام جفول، وخجول؟
٤ ـ هل هو بصحة جيدة ام لا؟

يقدم لون غشاء باطن عين الحصان معلومات نافعة في تشخيص بعض انواع الامراض. ويتضح تماماً انه لايمكن الحصول على معلومات كثيرة من اي جزء آخر من اجزاء الحصان بملاحظة مايخص صحته ومزاجه كما يمكن ذلك من العين.

ظل ابي ثلاثة ايام يناقش الخصائص ويعين محاسن ومساوىء الخيل العربية المولودة في اجزاء مختلفة من البلاد، كالخيول العربية النجدية والعنزية التي حرصنا انا ومحبوب على تدوينها. وبيّن لنا ابي ايضاً ان تجار الخيل العربية يطلقون على جميع الخيل التي يجلبونها الى بومبي اسم الخيول العربية، وهذه ليست صحيحة، لان كثيراً منها ولدت قرب بغداد وتعرف بالعراقية، وهي طبعاً عربية ولكنها ليست من ضرب رفيع. ومن العسير جداً تعيين صنف الحصان العراقي الذي اختلط دمه ونسله، ولكن لايوجد حصان كامل الصفات.

يمكن تقسيم مناطق تربية الخيل في البلاد العربية الى ثلاثة اقسام كما يأتي:

١ ـ في الشامية او بادية الشام وفيها ترى افضل الخيول العنزية، ويؤخذ عدد منها الى دمشق لبيعها.
٢ ـ الارض الواقعة شمال القسم الاوسط من بين النهرين العظيمين دجلة والفرات التي يطلق عليها العرب اسم الجزيرة وفيها الخيل الشمرية.
٣ ـ العراق او ارض دجلة وتشمل ولايتي بغداد والبصرة حيث يغرم البدو كثيراً بخيولهم ويهتمون بها كأنها اولادهم، ويحرصون كثيراً على عدم ادخال دم غريب فيها بتلقيحها باي نسل آخر.

واني لاأستطيع ان اقول اني ومحبوب لم نستطع ان نلم بجميع تفاصيل المعلومات الثمينة التي قدمها لنا والدي ولكننا سعينا الى فهم كل شيء قاله جهد مستطاعنا. ولكننا اذا ماذهبنا الى البادية ورأينا الخيول من الانساب النجدية والعنزية والحمدانية والحمدلانية والغزلانية في مواطنها ونلاحظ اقسامها المختلفة فان التعليم الذي تلقيناه، نظرياً لحد الآن، سيكون تطبيقياً واني على يقين انه سيضيف كثيراً الى معرفتنا بالخيول العربية.

واني اسعى الى الاحتفاظ بكل المعلومات التي منحني اياها والدي عن الخيول العربية، وكل ماسمعناه ورأيناه في بغداد ومما افدناه من رحلتنا الى كربلاء والنجف الاشرف والحلة وغيرها.

يقع في وسط الصحراء العربية الجبل وحايل وشمر والى الجنوب منها عنزة ونجد. اعتاد سكان هذه المناطق قبل قرن تقريباً ان يمتلكوا الخيول العربية الفارهة التي كانوا يركبونها في جماعات كبيرة ويتجهون الى المدن على ضفاف نهري دجلة والفرات، والى المنطقة الواقعة بينهما المعروفة بالنهرين ويفيدون مما بها ويبتاعون افضل خيولها وبهذا صاروا يمتلكون الصفوة المختارة من خيول العراق. ومما هو مشهور ان اهل البادية حريصون في انسابهم، فلا يتزوجون خارج اهليهم من اجل المحافظة على نقاء النسب.

ويسلكون السلوك نفسه في مايخص تربية خيولهم، ويفضلون ترك الفرس دونما مهر على تلقيحها من حصان غير اصيل، وهذا فانهم يمتلكون انقى الاعراق من الخيول العربية حتى الوقت الحاضر.

ويتخذ البدو الطريقة الآتية في رعي خيولهم: يبذرون المرطمان ويطلقون دوابهم في الحقل عندما يبلغ طول النباتات ٩ او ١٠ عقد لكي ترعى فيها، وتظل فيها مدة ثم تمنع عنها حتى يترك النبات ليعاود نموه. وتكرر العملية مرتين او ثلاث مرات قبل ان يترك الحاصل نهائياً لكي ينمو. وتبدو هذه العملية ممارسة جيدة جديرة بالتجريب في الهند وفي غيرها.

اما في مايخص بيع وشراء الخيول، فيقال انه قبل سنوات عندما لم يكن ثمة طلب عظيم على الخيل العربية، فان اهل شمر وعنزة ونجد كانوا يأخذون خيلهم الى بغداد والبصرة وبيروت ودمشق والمدن الكبيرة الاخرى لبيعها. اما في السنوات الخمس او الستين الماضية فان الطلب ازداد تدريجاً، وصارت خيول اكثر تصدر الى بومبي. واخذ تجار الخيل في بومبي او وكلاؤهم يذهبون الى داخل الجزيرة العربية ويشترون الخيل من البدو.

اخبرنا السيد محمود افندي ابن نقيب الاشراف في بغداد انه اذا اراد مالك ارض عربي ثري او تاجر يحب الخيل، حصاناً عربياً من اي نسب امثال صقلاوي جدران او صقلاوي بير او غيرهما فانه يرسل وكيله الى الصحراء واذا وجد الحصان من النسب الذي جاء يبحث عنه، فانه يشتريه - ويدفع في الغالب ثمناً طويل الاجل، ولكنه اذا لم يعثر على بغيته فانه يبحث عن فرس يلقحها حصاناً من النوع الذي يريده ويتفق على ثمن المهر الذي لم يولد بعد ويدفع المبلغ لصاحبه، ويبقى مع الفرس حتى يولد المهر. واذا صادف ان كان مهراً فانه يأخذه واذا كانت مهرة فان صاحب الفرس يعيد المال الذي دفع مقدماً اليه. ويستطيع المرء ان يحكم من هذه الحقيقة ان العرب يقدرون انساب الخيل الجيدة.

استقيت المعلومات الآتية من عربي محترم من قبيلة شمر في مايخص تربية الخيل لدى البطون النجدية والشمرية والعنزية. من بطون العشائر الكثيرة التي تقسم اليها نذكر اهمها:

١ - السلوم ٢ - خبيث ٣ - عفاريت ٤ - جودي ٥ - جدران ٦ - فداجة ٧ - جرداوة

٨ - زواج ٩ - تومان ١٠ - ماجود

ومن البطون التي ذكرت آنفاً فداجة وزواج وهما اكبرها وتمتلكان قرابة ٢٠,٠٠٠ فرس. امام الباقون فيمتلكون قرابة ٥,٠٠٠ او ٦,٠٠٠ لكل منه.

وهذه البطون تمتلك اعداداً كبيرة من مختلف انواع الخيل، ولكن الآتية منها هي اكثرها شهرة.

١ - صقلاوي جدران ٢ - ميان ٣ - مريقي ٤ - نجمة الصبح ٥ - عبية الشرق ٦ - شواي مهل الصبح

ويعزل البدو الفحول عن الافراس. وهم يحفظون نسب كل فحل بحرص شديد وحماسة عظيمة لدرجة ان بعض الفحول ترقى بانسابها الى خيل الخلفاء الراشدين وخلفاء بني العباس. وتبقى الفحول لدى شيخ القبيلة ويكون مسؤولاً عنها. ويحاول بعض الناس احياناً تسفيد افراسهم من هذه الفحول سراً، غير انهم لايفلحون عادة

واغرب شيء انهم لايدونون نسب الفحول الا نادراً، ولكن لكل شيخ ثلاثة او اربعة من العرب الثقات الذين يعرفون نسب كل حصان عن ظهر قلب. وثمة حقيقة اخرى اشد غرابة وهي انه عندما يسفد فحل فرساً فلا يحفظ بذلك سجل مدون، ولكن العرب ذوي الحافظة المذهلة المعروفين بأسم «قول بان»[٣] يتذكرون هذا ايضاً. ذاكرتهم عجيبة جداً بحيث اذا جاء احد الى شيخ القبيلة يبغي شراء خيل فان الشيخ بأمر النسابين ان يجلب كل منهم مالديه من خيل تتراوح مابين مئتين الى ثلاث مئة حصان،

وكلما مر حصان بالشيخ فان العربي الواقف قربه، وبيده عصا طويلة يربح عليها يديه والسلسلة، ويهتف بأسم أب الحصان. وقلما لايعرف الرجل اسم اب مهر او مهرة، واذا حدث ان كان يجهل اسم الحصان الذي سفد الفرس ولايعرف اسم والد الحصان لذلك فانه يخجل من جهله يطرق مخاطباً الشيخ قائلاً: الله وحده يعرف اسم ابيه.

سيعجب القاريء لحقيقة امتلاك عربي غير متعلم يسكن الصحراء مثل هذه الحافظة فيذكر اسماء وعلامات ثلاث مئة او اربع مئة حصان انجبت من سلالات مختلفة ويعرف شجرة انسابها ايضاً، غير اننا لو نظرنا الى تاريخ البلاد العربية قبل الف وثلاث مئة عام فسنجد ان راعياً اعتيادياً امياً من عرب البادية في تلك الايام يستطيع ان ينشد الآف الابيات من الشعر عن ظهر قلب، كل راع يحفظ قصائد وابياتاً جميلة الفكر والمشاعر بلغة بديعة. بدوي اليوم سليل اولئك حفظة الشعر، فلا عجب اذا استطاع سليل الاجداد ذوي الذاكرة القوية ان يتذكر انساباً طويلة للخيول التي يحبها كثيراً.

اعتدنا ان نسمع ان العلف في الجزيرة العربية نادر وانهم يعانون من الحاجة اليه، ولكن الامر في الحقيقة ليس كذلك، عدا ماخص القبائل التي تربي الخيل المستقرة حول الجبل وفي شمر. على انهم في الخمسين او الستين سنة الماضية سكنوا منطقة النهرين (جزيرة الموصل) فتوفر العلف لخيلهم منذ ذلك الحين. لان موطنهم الحالي يقع بين نهري دجلة والفرات الذي لايجف في اي وقت من اوقات السنة، وتنمو التمور والحبوب بوفرة على طول ضفاف النهرين.

مناخ العراق الذي تقع فيه بغداد والبصرة وكربلاء والنجف الاشرف ينقسم الى الفصول الآتية:

الخريف	ـ	شباط وآذار ونيسان
الجو الحار	ـ	ايار وحزيران وتموز
فصل الامطار	ـ	آب وايلول وتشرين الاول
الجو البارد	ـ	تشرين الثاني، كانون الاول، كانون الثاني[٢٠]

ولايكون علف الخيول في الحر وفيراً، لذلك فان اولئك الناس في ذلك الفصل يرحلون الى ضفاف الانهار حيث يوجد العلف. وتتغذى الامهار والمهرات على حليب امهاتها ستة شهور وتعطى احياناً حليب الماعز ايضاً. وتتجول طليقة مع امهاتها في الصحراء.

اكتشفت شيئاً غريباً للغاية وهو ان الخيول اذا بلغت سنة ونصف السنة او سنتين، ذكوراً او اناثاً، فانها تتزاوج في هذا العمر الصغير وان الافراس تلد ذكوراً بشكل ثابت. ولهذا فان الامهار اذا بلغت عمراً يمكن ان تستغني فيه عن حليب امهاتها، فانها تعزل عن بقية الافراس، وتباع جميع الخيل التي تزيد على سنتين عمراً الى التجار الذين يتوافدون من جميع انحاء العالم.

سمعت من عرب محترمين، ثقات، يعتمد على معلوماتهم ان تجار الخيل العربية لايشترون الخيل في الجزيرة العربية بثمن بخس كما يتصور بعض الناس الذين يذهبون لشرائها في بومبي. تكلف البديلة الجيدة الجيش عادة من اثنتي عشرة ليرة الى خمس عشرة ليرة. (الليرة عملة تركية تساوي نحو اربع عشرة رُبِيّة) فهذه الخيول البديلة تكلف في البلاد العربية حوالي ١٦٨ الى ١٩٦ رُبِيّة لكل حصان. ويتوقف ثمن النوع الافضل من الخيول العربية على النوع ونقاء الدم.

عندما زرنا الزبير رأينا حصاناً من نسل نجدي، عمره ستتان، يعود إلى خالد باشا. سأل ابي عن كلفته، فقال له خالد باشا انه دفع ٨٠ ليرة ثمناً له او نحو ١١٢٠ رُبِيّة. واعجب ابي بذلك الحصان ودفع ١٥٠ ليرة عنه ولكن خالد باشا لم يوافق على بيعه حتى بمثل ذلك الثمن.

وسأل والدي عن اسعار الخيل في بغداد ايضاً ووجد ان الخيول العنزية او الشمرية الاصيلة لايمكن شراؤها بأقل من ٥٠ ليرة. ويمكن بطبيعة الحال شراء خيل عراقية جيدة نوعاً ما باسعار متهاودة.

حكى عربي محترم لوالدي ان نوع الخيول العربية قد تدهور، بصورة عامة، في صفاته اثناء السنوات القليلة الماضية. وان الجزيرة العربية لم تعد تنتج خيولاً عربية اليوم كما كانت في الايام الخوالي. وكان أبي متلهفاً لمعرفة السبب لعدم ارسال خيل عربية

اصيلة حقاً الى بومبي كما كانت ترسل سابقاً. واستفسر من عدة اشخاص ـ ذوى سلطة عليا، امثال السيد محمود والسيد ابراهيم افندي، البغداديين، وتلقى ايضاحاً ان الخيول العربية الاصيلة بلغت اوج كمالها في ايام الخلافة الاموية، ثم بعد ذلك جرى تهجين الخيول الاصيلة النقية الدم بخيول غير اصيلة ظناً منهم انهم سيحصلون على خيل اجمل واكبر حجماً، فاختلطت بذلك الانساب بصورة غير مقيدة.

وتعرف ذرية الخيول العربية والعراقية كما يأتي:

١ ـ اذا كان الاب عربياً والام عراقية فان المهر يعرف بالهجين.

٢ ـ اذا كان الاب عراقياً والام عربية فان النتاج يعرف بخبرو.

٣ ـ اذا كان الاب والام غير عربيين فيعرف الحيوان بالاعجمي.

٤ ـ واذا كان كلا الوالدين من نسل عربي صرف فان المهر يدعى عتيقاً.

دخل نتيجة لهذا التزاوج كثير من دماء الخيل العراقية في دماء الخيل العربية الاصيلة وخصوصاً في بغداد والبصرة والمسيب والحلة وغيرها، بيد ان قبيلتي عنزة وشمر. حافظوا على انساب خيولهم نقية تقريباً. ومن الحقائق المعروفة ان الخيول العربية التي اشتهرت في الهند بكونها خيل قتال وركوب وسباق، تتراوح بين ١ ـ ١٤ او ٢ ـ ١٤ وقلما تزيد على ٣ ـ ١٤ قبضة بشكل ثابت، وذلك هو القياس للخيول العربية الاصيلة من نجد وشمر وعنزة.

في المناطق المحيطة ببغداد والبصرة والحلة والمسيب، عندما ادخل دم الخيل العربية في الخيل العراقية، تحسنت في ظرف سنوات قليلة نتاجات الحيوانات في ارتفاعها، وجلب عدد كبير منها الى بومبي وباعها تجار الخيل، على انها خيل عربية اصيلة، الى افواج فرقة حيدر آباد وفيالق اخرى.

وحكى لي والدي ان فوجه القديم، حملة الرماح الثالثة التابعة لفرقة حيدر آباد، كان مقره في سنة ١٨٧٥ في اورانگاباد، فذهب من هناك الى بومبي لشراء خيل، ورأى فيها بعض الخيل العربية التي كان ارتفاعها ١٥ قبضة تقريباً، وعندما سأل التجار كيف تم انجاب هذه الخيل اجابوه ان بعض الضباط طلبوا اليهم استيراد قليل من الخيل العربية بهذا الارتفاع، وعاهدوهم ان يدفعوا لهم ثمناً جيداً لها، فجلبوها من بين النهرين، قرب الموصل بعد سفاد خيل عراقية كبيرة الحجم افراساً من عنزة وشمر.

وبعد ان لاحظ العرب ان الخيول التي ارتفاعها من ١٥ الى ٢ ـ ١٥ قبضة عليها طلب عظيم في بومبي واثمانها جيدة، بدأوا يستولدون خيلاً بهذه المواصفات، ونجحوا في انتاج خيل اكبر حجماً. وراح بعض العرب ايضاً يقلدون مربي الخيل الاستراليين بوسم الخيول على اكتافها، مع ان بعض مربي الخيل من عنزة وشمر يستنكرون هذه الممارسات ويبذلون جهودهم من اجل المحافظة على انساب خيلهم، غير ان اكثر من نصف القبيلة اخذوا يربون خيلاً كبيرة الحجم، وصاروا في محاولتهم كسب مال اكثر يدمرون انساب خيلهم.

ذكر لي والدي ان البولو (الكرة والصولجان) بدأت تصبح لعبة شعبية في الهند نحو عام ١٨٨٠، ونتيجة لذلك صار الطلب لخيول صغيرة للضباط وللاعبين الآخرين، ولكن في ذلك الوقت لم يُجلب الى بومبي الا عدد ضئيل من الخيول العربية الصغيرة. واستورد طوال الموسم كله حوالي ثلاثة او اربعة الآف حصان، ولم يكن بينها من الخيل الصغيرة إلا اربعة او خمسة. وعندما اخذت هذه الخيل تنال الاستحسان في الهند، توجه تجار الخيل العربية في بومبي الى اماكن مختلفة لتربية الخيل في الجزيرة العربية وطفقوا يقنعون مربي الخيل بانتاج هذا الصنف من الخيل. لذلك فان الفحول والاناث الصغيرة الحجم في مابين النهرين (قرب الموصل) عزلت لاجل استيلاد خيل اصغر حجماً، وبعد سنوات اخذت بومبي تستورد مئات الخيل بارتفاع ٢ ـ ١٣ و ٣ ـ ١٣ قبضة. كانوا بادىء ذي بدء يميلون الى انتاج نوع من الخيل كبير الحجم وقوي، ولكن الطلب لخيل البولو المفاجيء شجع انتاج دواب اصغر ونظراً للانتقال من طرف الى طرف آخر، فقد عانت الخيول العربية كثيراً، لذلك فان نوعية الخيول الاصيلة التي كانت ترى سابقاً

في بومبي لاتجدها اليوم فيها. واخبرني ابي ايضاً ان الغلطة نفسها كانت السبب في تدمير جميع السلالة المحلية في الهند ونعني بذلك مثلاً خيول مناطق خاتياوار گونگاتيري، ماروار، مالاگاون، بوندي، والدكن. فقد اخذوا يضربّون الخيول العربية والاسترالية بهذه الاصناف ظناً منهم انهم بعملهم هذا يحسنون السلالة الهندية، ولكن النتيجة التي حصلت هي التدمير الكامل للسلالات العريقة، ولم يتحسن نسلها قط. اخبرني ابي انه عندما كان في الثانية عشرة من عمره كان لديه حصان دكني اصيل كستنائي اعتاد ركوبه عند الصيد، وان بنيته وشكله وهيكله تشبه تماماً الخيل العربية من الطراز الاول في ايامنا هذه. وقال ايضاً ان خيول خاتياوار في تلك الايام كانت وسيمة، سريعة الجري. ولو كانت تلك السلالة النقية موجودة اليوم لفاقت الخيول العربية في البولو، وفي السلالات الكونگاتيرية والدكنية خيول ممتازة ايضاً.

في الدكن، استغنى علي بن عبد الله عن جميع فحول السلالة الاصيلة لخيول لمالاگاون وگونگاتيري، واستبدلها بخيول عربية وكانت النتيجة ضياع السلالة القديمة في الدكن، ولم يكن النسل الجديد بافضل حالاً قط.

وكنا في بغداد ذات مساء نناقش مسألة الخيول بعد تناولنا العشاء، وذكر ابي في معرض الحديث انه قبل اثنتين واربعين سنة، عندما كان في الثانية عشرة من عمره، اخذه جدي الى «جاثرة»[٢٧] في مالاگاون حيث يعرض نحو خمسة الأف حصان للبيع. ويحضر عدد كبير من الناس من حيدر آباد لشراء الخيل، وقد بيعت بعض الخيل في معرض الخيل ذلك بـ ٢٠٠٠ روبية الى ٢٥٠٠ روبية.

مالاگاون قرية بين حيدر آباد واوراگاباد حيث تقام جاثرة ومعرض للخيل ايضاً. قال ابي ان اغلب الخيل في المعرض كانت من سلالة دكنية صرف ـ وسيمة، حسنة الشكل، جيدة الهيكل، ولم نعد نجد ذلك النمط وتلك السلالة اليوم. كانت فرقة حيدر آباد وكل افواج خيالة صاحب السمو النظام تمتلك في ذلك الحين خيولاً دكنية ومالاگاونية، غير ان تلك السلالة ضاعت تدريجاً، وكان سبب ذلك الاختلاط الدائم الناقص في الارومات.

كانت الخيول العربية الاصيلة في السابق تعرف باسماء آبائها، فيقال مثلاً عن مهر انه صقلاوي جدران وان اسم ابيه كذا وكذا، غير ان الاسلوب قد تبدل اليوم واتخذت بعض القبائل طريقة جديدة، فتركوا اسم الأب وصاروا يميزون المهر باسم امه، واذا استمرت جميع القبائل العربية في تبني هذا النظام فان ضرراً سيصيب انساب خيلهم.

التعليق والهوامش

اهمية الرحلة:

تتجلى اهمية الرحلة في كونها تثبت في يوميات شاهد عيان ذكر فيها مارآه في بداية هذا القرن منذ دخوله البصرة، وقبلها ايضاً، حتى وصوله بغداد، ووصف بعض احوال العراق الادارية والاجتماعية وطرق المواصلات ووسائلها النهرية والبرية، ومافعله فيضان عام ١٩٠٧ فيها. ويولي اهتماماً خاصاً بالخيول العربية وصفاتها وانسابها وتربيتها وتسويقها داخل العراق وخارجه. ويرد فيها ذكر شيخ المحمرة خزعل، امير عربستان العربية من ١٧٩٧ ـ ١٩٢٥. وعبد الرحمن النقيب رئيس اول وزارة عراقية عام ١٩٢٠. وكان حاكم حيدر آباد في الدكن يعتبر من تابعي نقيب بغداد، ويقال ان للشيخ عبد القادر الگيلاني ابنا اسمه عبد الرزاق هاجر الى الهند ومازال هذه العائلة القادرية هناك. وكانت تُرسلُ اموالٌ طائلة وملابس موشاة بالذهب هدايا الى نقيب بغداد من حيدر آباد. وحيدر آباد من مراكز التراث العربي الاسلامي الذي حفظ ونشر فيها.

الهوامش

١ ـ ترد في عنوان الرحلة وغضونها اصطلاحات عسكرية وغيرها ليست عربية، رأيت من المناسب اعطاء معانيها.

أ ـ نواب:

من القاب ابناء الملوك وهي من العربية وتعني الوصي او الحاكم. وهي ايضاً لقب لامير مسلم في الهند، ويطلق ايضاً على شخص مسلم من ذوي المنزلة السامية ولبس له وظيفة.

ب ـ بار جونك:

بار الشجاع وجونك المحارب فهي تعني المحارب الشجاع.

جـ ـ بهادر:

اي البطل.

د ـ افسر الملك:

وتعني تاج الملك وهي رتبة عسكرية تعني الضابط.

هـ ـ النظام:

وهي من العربية وتعني لقب حكام حيدر آباد المسلمين بالهند من عام ١٧١٣ الى عام ١٩٥٠.

٢ ـ شاه جهان:

هو الامبراطور المغولي المتوفى عام ١٦٦٦م حكم من ١٦٢٩ الى ١٦٥٨ وفتح كثيراً من بلاد جنوب الهند. وبنى صرحاً او ضريحاً فخماً لزوجته ارجمند بمرف بتاج محل في اكرا. وشاه جهان هو لقب خُرّم ابن الامبراطور جهانجير بن تيمور نال مكافأة على انتصاره في بلاد الدكن عام ١٦١٦.

٣ ـ ستيفن لنج:

كان اول امر ستيفن لنج تشغيل باخرتين في المياه العراقية بعد عام ١٨٤١، وقام لنج وفيلكس جونز وآخرون بعمليات المسح ورسم الخرائط في العراق وظلت هذه الخرائط تستعمل حتى سنة ١٩١٤، وكان لشركة لنج فروع في الهند ودول الخليج العربي والعراق للنقل البحري. واستعملت باخرتين حديثتين في سنة ١٨٦١ وكانت تنافس بواخر «ادارة عُمان العثمانية». وكان ستيفن لنج قد اشتغل في العراق سنتين وغرق اخوه في الباخرة «دجلة» في شهر مايس ١٨٢٦ لغروب عاصفة وغرقها في نهر الفرات وكانت شركة لنج يطلق عليها الاهالي «بيت لنج» وكان مقرها في البناية الغربية من عمارة البدوي الحالية وقد اصبحت الآن سوقاً عصرية وكانت فيها مكتبة تبيع الكتب الانكليزية وتسمى مكتبة مكنزي.

٤ ـ ذكر ان النخل يبدأ بالحمل في ايار وينضج في ايلول ويكون منظر الاشجار بديعاً في شهري ايلول وتشرين الاول، اشد شهور السنة حرارة، غير ان الصحيح ان النخل يبدأ طلعه في شهر آذار وينضج في شهر تموز اما اشد الشهور حرارة فهما تموز وآب.

٥ ـ الليرة هي وحدة وزن رومانية قديمة تساوي ٣٢٧.٥ غراماً وتسمى ايضاً پاون اي الرطل الانكليزي ويساوي ٤٥٣ غراماً.

٦ ـ الرّبية هي عملة عثمانية تساوي بعملتنا اليوم خمسة وسبعين فلساً. كانت مستعملة في بغداد في عام ١٧٥٠م وهي عملة هندية او متأثرة بها واصل الكلمة من السنسكريتية.

٧ ـ نهر الكارون احد روافد شط العرب وليس الفرات.

٨ ـ جدار = من جاما اي ثوب، ودار اي حامل فيكون المعنى حامل ثياب السلطان او الامير او المسؤول عنها.

٩ ـ ذكر تعبير «سلام دره» خاطئاً لانه من الايمازات العسكرية وصوابه «سلام خذه».

١٠ ـ ترد كلمة الافطار بمعنى وجبة الطعام او الطعام عموماً وهي هنا تعني الغداء.

١١ ـ زبيدة خاتون اي السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد وهي طبعاً غير زبيدة خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي. ويطلق ايضا على زمرد خاتون اسم زبيدة خاتون ولبتها في كرخ بغداد.

١٢ ـ لم تشق زبيدة قناة من سوريا الى الكعبة فهو امر مستحيل وغير منطقي، بل دعت خازن اموالها وامرته ان يدعو المهندسين والعمال من انحاء البلاد وقالت له: «اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا».

ووفد على مكة اكفأ المهندسين والعمال ووصلوا منابع الماء في الجبال واعتمدوا على عين حنين فارسلوا منها الماء تحت الصخور حتى تغلغل من وادي النعمان على مسيرة ١٠ كم من مكة وصار اهلها وحجاج البيت يستقون من مائها التي سميت بأسم «عين زبيدة» ولايزال هذا الماء يجري الى مكة بعد تطويره حديثا. كما ان السيدة زبيدة مهدت طريق الحج من العراق الى الحجاز عبر الصحراء وبنت عليه المرافق والمنازل وحفرت الآبار ومازال يعرف بأسم «درب زبيدة».

١٣ ـ يقصد بالغوث الاعظم الشيخ عبد القادر الگيلاني ولاينبغي هذا الوصف الا لله وحده. واليه تنسب العائلة القادرية التي ينحدر منها عبد الرحمن النقيب.

١٤ ـ القبضة وحدة قياس ارتفاع الخيل وتساوي اربع عقد (انجات).
١٥ ـ يرد ذكر مابين النهرين بأسم النهرين ويقصد بذلك الجزيرة اي مابين دجلة والفرات في شمال العراق قرب الموصل.
١٦ ـ الزبون بلغة اهل العراق يطلق على الرداء الطويل الذي يشبه المعطف ويصل الكاحلين. وقد مر ذكره في الرحلة بتعبير سترة طويلة. اما ماذكره هنا فهو المقصود به الكفية او الفترة او «البشاغ». وكلمة زبون مستعملة في العراق ونجد وشمال افريقيا. ولعلها من (زبن) اي كف او دفع ـ البرد ـ وتعني ايضاً المكان الضيق فهو اذن ثوب ضيق بالنسبة الى العباءة والقباء.
١٧ ـ الفيز هو الطربوش الاحمر من صنع مدينة فاس المغربية وهو لباس الرأس لدى العثمانيين والمغاربة.
١٨ ـ فيضان عام ١٩٠٧ الذي بدأ إثر هطول الامطار ونوبان الثلوج يوم الخميس ٢٨ آذار.
١٩ ـ يقصد بالوادي العريض النهر الدارس.
٢٠ ـ صوبه دار اي الحاكم او الوالي او الأمر.
٢١ ـ عملدار صوابها علمدار اي صاحب العلم.
٢٢ ـ هيترو داتس صوابه هيرودوتس، المؤرخ اليوناني المعروف.
٢٣ ـ ذكر د. حسن ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الاسلام الجزء الثاني ط ٧ بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٥ ومصادره الطبري وابن الجوزي في مناقب بغداد، والفخري، انهم ذكروا حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق. ذلك ان راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل اصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد ان يبني المدينة فقيل له امير المؤمنين الخليفة المنصور، فسأل الراهب عن اسمه فقيل عبد الله، فسأل عما اذا كان للخليفة اسم غير هذا فقيل: اللهم لا، الا ان كنيته ابو جعفر ولقبه المنصور. فقال الراهب للرجل: اذهب اليه وقل له لاينصب نفسه في بناء هذه المدينة، فإنا نجد في كتبنا ان رجلاً اسمه مقلاص يبني ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن، وان غيره لايتمكن من ذلك. فجاء الرجل الى المنصور، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير: «أما والله كان اسمي مقلاصاً وكانت تضرب به الامثال. وكان لنا عجوز تربيني فاتفق ان صبيان المكتب جاءوا يوماً الي وقالوا لي نحن اليوم اضيافك» ولم يكن معي ماانفقه عليهم. وكان للعجوز غزال، فاخذته وبعته بما انفقه عليهم. فلما علمت اني سرقت غزالها، سمتني مقلاصاً، وغلب علي هذا اللقب، ثم ذهب عني والآن عرفت اني ابني المدينة.
٢٤ ـ اطلق ابو جعفر المنصور على المدينة التي شيدها اسم «مدينة السلام» تيمنا بالجنة وتثبيتاً لذكر الله الوارد في القرآن الكريم بأسم «السلام». وصار الناس يسمونها «مدينة المنصور» نسبة الى الخليفة الذي شيدها، وسميت ايضاً «الزوراء» و«المدينة المدورة»، واطلق عليها وعلى ماشملته من ابنية اخرى عند توسعها اسم «بغداد» الذي كان يطلق على هذه المنطقة منذ ايام البابليين ـ العراق في التاريخ ـ بغداد ١٩٨٣.
٢٥ ـ قول بان اي النسابون وهنا هم نسابو الخيل.
٢٦ ـ تقسيمات القبائل هنا وتسمياتها غير مضبوطة ولها عند ابناء الشعب تقسيمات واسماء اخرى.
٢٧ ـ جاثرة اي سوق.

ذكر المؤلف ان الزبير تبعد عن البصرة عشرين ميلاً، وهي اليوم تبعد عنها نحو عشرين كيلو متراً، ولعل تقديره ذلك ناجم عن الطريق الملتوية آنذاك.
وذكر ايضاً انهم لعبوا لعبة «البولو». والبولو كان يسميها العرب في ايام العباسيين «لعبة الكرة والصولجان» وكلمة صولجان كلمة اجنبية تعني بالعربية العصا المعقوفة الرأس. وأصل اللعبة من التبت التي جاءت منها كلمة بولو.
وذكر كذلك ان لضريح الامام الحسين اربع منائر مذهبة، وهي في الحقيقة منارتان وقبتان.
طبعت هذه الرحلة في بومبي في مطبعة جريدة بومبي سنة ١٩٠٨ وقد اهداها مؤلفها ـ الذي كان في القوات المسلحة لصاحب السمو النظام ـ الى العقيد نواب الملك بهادر آمر المرافق الاقدم لصاحب السمو وامر الجيش النظامي والنظام دليلا على الاحترام والمحبة. فكان يعد نفسه ايضاً مطيعاً له.

• • •

صدام حسين تقدم الرجال في معركتي التحرير والبناء.